بدر أحمد

# بين بابين

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

عنوان الكتـاب: بين بابين

اسـم المؤلـف: بدر أحمد علي

الموضــــوع: روايـة

عدد الصفحات: 152 ص

القيـــاس: 14.5 × 21.5 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ

ISBN: 978-9933-580-85-8



© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa



دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: +963 11 2314511

هاتـف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly



**العمليات الفنية:**

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى



**لا يجوز نقل أو اقتباس، او ترجمة، اي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.**

بدر أحمد علي

# بين بابين

روايـــة

## بدر أحمد علي

شغل منصب المدير التنفيذي لمؤسسة رواق الأدب العربي ومقرها في اليمن وقد جمدت نشاطات المؤسسة بسبب ظروف الحرب.

أهم المؤلفات:

- أمطار سوداء رواية صدرت عن دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر - الرباط - المملكة المغربية ٢٠١٢م - للانتظار بقية (مجموعة قصصية) - أزهار على الرصيف (مجموعة قصصية) - أفغانستان ٢٠٠٦ قصة طويلة) - أبناء الحرب (قصة طويلة) - ثورة الخصيان (رواية).

إلى...

أبي...

زوجتي...

أبنائي...

وكـل القلـوب الطيبـة التـى رافقـتني في مـشوار كتابة هذه الروايـة..

أحبكم.

بدر

إذا اعتقدت أنّ ما تقرؤه يبدو حقيقياً فهو كذلك فالحقيقة أشدّ غرابةً من الخيال.

**"نيلسون ديميل"**

# I

ظلامٌ دامس...

لا شيء أستطيع رؤيته...

عتمةٌ مقيتة تثير في نفسي الغثيان...

يُخَيَّل لي أنّي أسقط في بئرٍ عميقة لا بداية لها ولا يبدو أنّ هناك نهايةً أو مستقراً لهذا السقوط.

أنا هنا في منطقةٍ منسيّةٍ بحساب الزمان والمكان وحتّى الوعي والشعور منطقةٍ باردة صامتة ومظلمة.

يُخَيَّل لي أنّي أغوص، لا إرادياً، في مسارٍ حلقيّ مظلم، يسبر أغوار ثقبٍ أسود لا أتذكّر متى وكيف ابتلعني! أو أنّي أرقد في عمق كهفٍ لعين، حفرته أظافر ومعاول جيوش خرافيّة من المشوّهين والمنبوذين، في إحدى هضاب كوكب ناءٍ غفلت عنه، حتّى اللحظة، حسابات كل رجالات الفلك، استخدمه إبليس منذ أربعمائة وثمانية وستين قرناً، كمتحف لأدوات الغواية التي يمارسها على بني البشر؛ لكن وبعد أن انتهت حرب الخليج الثانية، وبعد أن عاد إبليس إلى دياره بأربعة أيام فقط، أصيب بلوثة غريبة أثّرت على مزاجه العام، بل وجعلته يهجر أشياء كثيرة كان يحبها ويعتد بوجودها في حياته، ومنها ولعه بالآثار، فهجر كهفه، وسرَّح كل الشياطين المكلّفة بحراسته، وتركه فارغاً من كلّ شيء، عدا الوحشة والظلام. حالياً لسبب غير معروف، أصبحنا ثلاثة في عمق هذا الكهف اللعين: أنا، الوحشة، والظلام.

لا لا لا...

بل تدفعني الحيرة والجنون لأن أقول جازماً بأنّي أرقد، منذ أمدٍ طويلٍ، داخل صندوق معدنيّ! نعم، داخل صندوق معدنيّ محكم الإغلاق، سرقه، في أمسية كاريبيّة مظلمة، بحارٌ برتغالي أكتع، يعمل في فتل الحبال وترقيع الأشرعة، على إحدى سفن كريستوفر كولومبس. أصيب البحار الأكتع، قبل أسبوعين فقط من ذلك، بداء الكلب، فحمل، في تلك الليلة، ما استطاع من كنوز المايا والأزتك، وغادر وحيداً بسفينته، إلى غير هدف. وفي منتصف الطريق تماماً، اعترضته شياطين "مثلث برمودا" قاطبةً، فسلّم نفسه، وسفينته وصناديقه، طواعية، لقعر محيط غاضب لم يفكر أكثر مستكشفي "ناشيونال جيوغرافك" جنوناً وتطرفاً، مجرّد التفكير، في سبر أغواره.

أو لربّما أكون قد تهت في إحدى متاهات وأبعاد آينشتاين النسبيّة.

كيف تبدو هذه المتاهات؟!...

امممممم لا أدري!...

ربّما تبدو كمتاهة لعبة "باكمان" أو ربما كشبكة لا نهائيّة من الأنفاق المظلمة المتداخلة المترابطة حُكِم عليّ أن أمضي ما تبقّى من حياتي أسير أغوارها متزملاً ثياب موسيقي غابر ومتقمّصاً شخصيّة مصاص دماءٍ خرف يدخن غليونه بهدوء ينتظر اكتمال بدرٍ لن يكتمل وينتظر قدوم عذراء ثلاثينيّة تقطن إحدى ضواحي ساو باولو الفقيرة تحمل بيديها سرّ الخلاص لن تأتي أبداً.

أو ربّما كقزم بحجم بقّة يافعة ألقاه سوء حظّه في طريق نملة أنانيّة تشعر بالضجر بعد أن أمضت بسبب الأمطار أسبوعاً طويلاً في مستعمرتها

فحملته خلسةً إلى زنزانة منسيّة حُفرت في جوف تمثالٍ بوذيّ تخنقه سحاباتٌ من البخور، وتحاصره منذ ألفي عام تلالٌ من القرابين والزهور والتضرعات وقبل أن تبوح النملة لأحد بسرّها داستها قدم عجوز كمبوديّة هرمة كانت فيما مضى قائدة سريّة استطلاع في جيش الخمير الحمر وبعد أن قتل قائدها ذو الشفة الأرنبية آخر أبنائها الخمسة بيومين صعدت إلى قمة هضبة وألقت ببندقيتها وزيّها العسكري في مياه نهر كسول يشقّ غابات الخيزران ثم فرّت بعيداً نحو إحدى القرى النائية وعاشت فيها متخفية بعد أن نذرت ما تبقّى من حياتها لخدمة "بوذا".

هل أبدو مبالغاً!؟...

ها!؟...

هل أبدو مجنوناً غبياً ثرثاراً!؟...

أبداً أبداً لست كذلك أرجوك لا تتسرع في الحكم عليّ!...

فالأسئلة والاحتمالات تضرب رأسي كما يضرب مفتاح براغٍ طنجرة فارغة ولا أجد سبيلاً لوقفها وعلى الرغم من ذلك لا أجد إجابةً شافيةً ومقنعةً لأيّ سؤال ولا أجد احتمالاً مقنعاً يمكنني التشبّث به والتعامل مع الوضع الحالي على ضوئه فالظروف التي أعيشها هنا تجعل أي محاولة للتفكير المنطقيّ محض هراء.

لا أدري ما الوقت الآن ولا أدري كم مضى عليَّ هنا!...

أنا معزولٌ تماماً عن العالم الخارجيّ وحتّى عن أفكاري ذكرياتي وحياتي السابقة هنا يتشابه الليل والنهار إلى حدٍّ كبير فلا نافذة تمدّني بالهواء وبالضوء فقط فتحة صغيرة جداً في أعلى السقف يخترق حوافها

المدبّبة عمودٌ صغير من ضوء الشمس يعبر فضاء الزنزانة يومياً وعلى مدى ساعة كاملة ويستقرّ في قاعها.

الظلام البرد والوحدة مزيجٌ شيطاني من العذاب بمرور الوقت يصبح وقعه عاتياً على النفس الجسد والذهن.

وعلى الرغم من قسوة الوقت وثقله هنا إلّا أنّني أجده خاوياً ومفرغاً من أي قيمة أو معنى.

فأنا أبدو كمن يحدّق طول الوقت في لوحةٍ سوداء معلّقة على جدارٍ أسود في غرفة مظلمة تكتظ ويكتظ عالمها بالصمت والظلام لا شيء يكسر هذه الرتابة المقيتة بين الفينة والأخرى سوى حركة أطرافي وأصوات جسدي الفسيولوجية.

أحياناً أدور بعينيّ في محيطي المعتم أتوقع أن يهمس "أرسين لوبين" في أذني بشيءٍ ما وتارةً أخرى أتوقع أن يتدلّى "فرانكشتاين" من السقف مثيراً حوله زوبعةً من الرعب والضجيج صورٌ عديدة تتدافع إلى مخيلتي وتوقعات أكثر لوجوه وشخصيات قد يبصقها الجدار أو السقف في وجهي في أيّ لحظة:

جاك سبارو...

صوفيا لورين...

الليدي ديانا...

المهاتما غاندي...

لكن الشيء المزعج الذي أتوقعه دائماً أو أتخيله هو أن تدخل عليَّ ممرضة ساديّة خمسينيّة تحمل بيدها حقاناً غريباً وأنا مقيّدٌ إلى سرير في غرفة عزل في مستشفى رديء للأمراض العقلية!

لا أدري أيُّ شيطانٍ لعين ابتكرت مخيلته المريضة بحبّ تعذيب الآخرين هذه الزنزانة الرهيبة بحيث يحولك طول المكوث فيها تحت وقع ذلك المزيج المتوحش من العذاب إلى مسخٍ بشريّ يبحث عن أي أداة ليضع حداً لحياته ولعذاباته.

كما أنّي لا أدري إن كان الوضع بهذا السوء أو أن ذاتي أصابها اليأس والوهن، ولم تعد قادرةً على الصمود في كلّ الأحوال وفي كلّ الظروف!

اعتدلتُ في جلستي أسندتُ ظهري للجدار وبدأتُ أحدّق في اللاشيء مددت يدي أتحسس قدميّ ساعديّ شعري وجهي وأصابعي كنت أحاول أن أتذكّر ملامحي أو أخمّن الفترة التي قضيتها هنا.

لمستْ أصابعي تضاريس وجهٍ هزيل بعظام ناتئة وببشرةٍ جافة مشدودة مزروعة بغابات من الشعر القاسي حاولت أن أتخيّل وجهي أو بمعنى أدقّ حاولت رسم وجهٍ في مخيلتي يمكنني أن أعتبره وجهي ولكن دون جدوى فكلُّ الوجوه التي طفت على صفحة مخيلتي هي وجوهٌ هزيلة شاحبة ممطوطة بصقتها زنازين "أوشفيتز" وسراديب الموت في ستالينجراد.

شيءٌ غريبٌ بداخلي يخبرني بأنّ الفترة التي قضيتها هنا تتعدى الشهرين دسستُ أصبعي في فمي بدأت أتحسس أسناني الواحدة تلو الأخرى وجدتُها ما زالت ترابط في مكانها ولمَ لا؟ فقد أحسنتُ رعايتها بشكلٍ كبير في حياتي الماضية، إلى حدٍّ قد يصل إلى الهوس والجنون بل إنّي كنت أنفق الساعات الطويلة في رعايتها ولذلك لا بدَّ لها أن تصمد وليس أيّ صمود بل لا بدَّ لها أن تصمد صموداً أسطورياً!

هل قلت حياتي الماضية؟!

ها؟!

امممممم!

إني أتحدّث وأفكر كجثة..

لكن إن كنت جثة فيفترض أني الآن في القبر!

يا إله الشياطين كيف لم يخطر هذا على بالي؟!

هل يمكن أن أكون قد متُّ في حياةٍ سابقةٍ لا أتذكّر منها إلّا ما يرد لذهني كومضاتٍ متفرّقة تردُ بين الحين والآخر وعلى غير موعد؟!

هل يمكن أن أكون قد اندثرت وسأصبح جيفةً نتنة ثم عظاماً نخرة؟!

ما هذا الهراء؟!

ما هذا الجنون؟!

جسدي ما زال طرياً وما زلت أتحرّك في فضاء سجني درت بعيني في الظلام وتحسست ما حولي ليس قبراً نعم نعم! هذا ليس قبراً هذا أكثر اتساعاً من كلّ القبور التي تأتيني في كوابيس الحمى.

سيغدو الأمر جنونياً لو أنّ ثعباناً خرافياً يشاطرني هذا الظلام لا أدري ماذا ينتظر للانقضاض عليّ وتعذيبي؟!

الفكرة في حدّ ذاتها تدفعني للجنون ليست الفكرة فقط الفكرة هي جزء من خيالاتي الواهنة التي تراودني بين الحين والآخر وأشعر بأنّها تدفعني باطرادٍ نحو الجنون.

نعم الجنون!

هذا هو ما ينقصني في هذه الزنزانة فأيُّ ثعبان ينتظرني أو أنتظره في هذا المكان المنسي؟!

أحاول أن أطرد هذه الفكرة من رأسي ومن ذاتي إلّا أنّها تعود وتعود كدبورٍ مزعج لا أجد فكاكاً منه.

نعم نعم أتذكّر ذلك الثعبان الذي يفترض أنّه يقاسم سكنة القبور قبورهم هوت صورته على مخيلتي الآن. كان ثعباناً ضخماً ومخيفاً تتصدر صورته غلاف كتاب "عذاب القبر" نعم كان كذلك أتذكّره الآن.

كان كتاباً مخيفاً لدرجةٍ لا تصدّق جعلني وأنا كنت ما أزال في شرنقة الطفولة أنام تحت بطانيةٍ ثقيلة في ذروة قيظ أغسطس وفي يدي مصباح بطاريّة مضيء كلُّ صوتٍ أسمعه كلُّ تكّةٍ أسمعها على زجاج النافذة كلُّ صوتٍ على أشجار حوشنا كانت هذه الأصوات تعني يقيناً - بالنسبة لي - أن ذلك الثعبان الرهيب جاء بمعيّة مَلَك الموت وأصبحا على بعد خطواتٍ منّي كلاهما يتميز من الغيظ وهما يشقّان طريقهما نحو صبيّ يصرُّ على النوم على أثير إذاعة "مونت كارلو" وإذاعة "صوت الغفران".

نعم نعم أتذكّر ذلك تماماً أتذكّر أن الأمر تحت تلك البطانيّة الثقيلة لم يكن ذهاباً إلى النوم بل كان ذهاباً إلى حمام "ساونا" مملوء بالأشباح والخوف والترقب.

فأيّ ثعبانٍ ذاك الذي يمتلك حصانة ضد الملل والسأم ويتنظرني هنا أو هناك!؟

ألم أقل سابقاً أنّي أتحدث وأفكر كجثة!؟...

بلى كجثّة مستسلمة تنتظر فقط.

جثّة نفقت منذ أسابيع أو سنوات لا تملك من أمرها شيئاً تنغل فيها ديدان وحشرات الأرض دون أن تستطيع دفع الأذى عن نفسها يا إلهي

تذكّرت الآن نعم تـذكّرت أوّل لقـاءٍ لي مـع المـوت وتـذكرت أول مـرة شاهدت فيها عـن قـرب جـسداً يعتـصره المـوت ثـم يبـصقه عـلى الأرض متراخياً.

كان ذلك في العام ١٩٧٩ في سهل البقاع اللبنانيّ حيث السهل يصارع البصر ويقضم بامتداداته كلَّ المسافات التي قد يتخيلها شـخص أتـى مـن سفوح الجبال.

هناك في منطقةٍ قريبة من بلدة عرسال اللبنانية أقامـت فـصائل الثـورة الفلسطينيّة معسكراً تدريبيّاً تحيط بـه الـتلال مـن ثلاثـة اتجاهـات يـضم المعسكر (٢٢٥ ثائراً ومقاوماً أمميّاً من قوميات وجنسيّات مختلفة يجمعهم في هـذا المعـسكر الإيـمان العميـق بعدالـة القـضيّة الفلـسطينيّة وبالحـل الراديكاليّ كحلّ منطقيّ ووحيد لهذه القضيّة.

في ذلك المعسكر الذي أُعـدَّ جيّـداً كنـا نتلقـى تـدريباتٍ عـلى حـرب العصابات على يد خبراء ألمان شرقيين أرسلهم الرفيق هـونيكر لتـدريب أفراد المنظمات الفلسطينيّة كانت التدريبات مكثّفة وعنيفة ولا تنقطع.

وفي خضّم كلِّ ذلك التقيتها فلسطينيّة يافعة قضت معظم طفولتها في الأردن ثم غادرته عقب كارثة أيلول تحديداً في الـ٧١ بمعية أمها وأخواتها الثلاث واستقرّت في الكويت.

"مريم" هكذا كان اسمها أخذت عن والدها ابن "الجليـل" الـذي لقي حتفه في أحداث أيلول الاسود في الـ٧٠م إيماناً صلباً بعدالـة قـضيتها وبقدسيّة نضالها وأخذت عن أمها ابنة بلدة "دير الأسد" عكا جمـالاً لم تتمكن شموس وأشواك وصخور المعسكرات من النيل منه أبداً.

حين تقف أمامها محدّثاً أو مستمعاً فإنها تتحول إلى بحيرة مغناطيسيّة بلباسٍ زيتونيّ تبتلعك تهضمك تحللك، ثم تمتصك ثم تنفثك في الأخير في الهواء كغبارٍ فلزي يسبح في مجالها المغناطيسيّ المتوحّش إلى الأبد!

في البداية تحاشيتها كثيراً، وتحاشيت الحديث معها؛ فمنذ اللحظات الأولى التي رأيتها فيها، أدركت أيّ نوعٍ من النساء هي، وأي كاريزما تحمل! لكنّي، وعلى غير موعد، وجدت نفسي في طريقها، أو وجدتها في طريقي، لا أتذكّر، إنّما ما أتذكّره أنّي كنت أسبح في فلكها، مسلوب الإرادة والتفكير!

في ليلةٍ سوداء معتمة كنّا معاً نجلس تحت شجرة لزاب معمرة كانت تدخّن وتحدثني عن رواية "آنا كارنينا" بإسهابٍ جعلني على يقين من أنّها تحفظها عن ظهر قلب كما تحفظ كل ما كتبه الأدباء السوفييت.

أثناء حديثها كنت أحدّق في السماء المطرّزة بالنجوم وحين بدأت أسأل نفسي عن مذاق شفاه الفتاة المدخّنة خُيّل لي أنّي سمعت هدير مروحيّة هيلوكوبتر أخبرتُ "مريم" بذلك فلم تُجب بل إنها تجاهلت كلماتي وعَاودت تدخينها وشرحها المسهب وبعد ربع ساعةٍ تقريباً غادر كلٌّ منّا إلى خيمته وبعد ساعةٍ تماماً من ذلك تناقلت أجهزة الاتصالات بلاغاً مفاده أن قوّة كوماندوز "إسرائيليّة" هاجمت بيروت واغتالت "مصطفى الزعيم" أحد القادة السابقين في منظمة "أيلول الأسود".

كان الخبر صادماً وكارثيّاً على الجميع ورغم ذلك تمَ إخلاء المعسكر وحمل كلّ فردٍ منّا سلاحه وعتاده واستعددنا لصدّ أيّ هجوم "إسرائيليّ" على مواقعنا لكن تلك الليلة مرّت بهدوء وفي ساعات الفجر الأولى تأكدّت لنا العملية من مصادر عدّةٍ أبرزها أثير الإذاعات العالميّة.

أتذكّر يومها أن "مريم" قضت بقيّة يومها باكيةً في مترسها النائي الذي يقع على هضبة منعزلة حاولتُ الاقتراب منها والتحدث إليها لكنها كانت عازفة كلياً عن الكلام.

في اليوم الرابع...

كان الهدوء قد عاد إلى الأنحاء وبدا أنّ بقيّة اليوم ستمرّ رتيبةً كبقية الأيام كُنت حينها أقف بجوار مبنى المكتبة الخاصة بالمعسكر رفقة أربعة من الرفاق منهم مقاتل فلسطيني يدعى "صلاح صلاح" وكنّا ندعوه "أبو صلاح" كان مقاتلاً صلباً لا يعرف خطوطاً حمراء ولا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه يدمن القتال وحياة المعسكرات بالقدر ذاته الذي يدمن به الاطلاع واستحضار الأرواح نجا بأعجوبة من حادثة "عين الرمانة" وعاد وحيداً بعد عدّة عمليات قام بها في عمق الأراضي المحتلة مع رفاق من الثورة الفلسطينيّة كان يقول دائماً أنّ بينه وبين الموت خصاماً أزليّاً وأنّه يتمنى أن يموت أو يستشهد على أرض فلسطين كما كان يحتفظ في جيب سترته العلويّ بدفتر أحمر صغير يدوّن فيه يومياً نقده اللاذع لذاته ولأدائه كنا سندخل المكتبة وسأجري معه حواراً لصالح إحدى الصحف التي تعنى بالثورة الفلسطينيّة حين فتحنا باب المكتبة دوى في أرجاء المعسكر صوت صافرة طويل كانت تلك الصافرة الطويلة تعني أنّ على كلّ فرد التوجّه إلى الساحة حاملاً سلاحه والاصطفاف في وضع انتباه.

ترك كلّ فردٍ في المعسكر ما كان فيه واتجهنا إلى الساحة وفي أقلّ من دقيقة كانت جُلّ قوّة المعسكر في الساحة وقفنا في خطوط متوازية منظّمة مضت بضع ثوانٍ من الترقب أذكر أن العيون بدأت تسافر بقلق بين الوجوه تبحث عن إجابات على الأسئلة التي احتشدت في الرؤوس وعلى

الشفاه لم يكن أحد يدري إن كان هذا الاستدعاء تدريباً أم تكليفاً بمهمة أم أنّه اختبار للجاهزية القتاليّة للأفراد!!

أتذكر حينها أنّي كنت حائراً قلقاً متوجّساً هدأت الهمهمات وهدأت خشخشة السلاح هبّت ريحٌ باردة سرت على إثرها قشعريرةٌ باردةٌ في جسدي أحدهم خلفي سعل مرتين آخر تنحنح ثم همس بشيءٍ ما كانت العيون مُسمرة على غرفة القيادة التي تقع في الجهة المقابلة من الساحة كنا نتوقع أن يخرج قائد المعسكر كان بابها مفتوحاً والريح تعبث بعلمٍ فلسطينيّ حائل الألوان ينتصب على سارية أمامها وتعبث أيضاً بصحيفةٍ باليةٍ مرميّةٍ أمام بابها شيءٌ غريبٌ اختلج بداخلي تعالى دويٌّ بعيدٌ في السماء دارت الأعين القلقة باحثةً عن مصدره علت الهمهمات حين أصبح الدوي أكثر وضوحاً أشارت الأصابع الحائرة إلى السماء إلى التلال المجاورة إلى الأشجار البعيدة غادرت "مريم" صفها واقتربت نحوي وقبل أن تقول شيئاً شاهدنا في الأفق البعيد نقطةً معلّقةً بين السماء والأرض لم تكن تلك النقطة سوى طائرة هليوكويتر "إسرائيليّة" في وضع استعدادٍ قتاليٍّ في الجهة اليمنى من المعسكر كانت تقف طائرة هليوكويتر في الوضعيّة نفسها دارت الأعين بذعر بين الطائرتين المعلقتين بين السماء والأرض وقبل أن يقرر الكثير منا الاحتماء شاهدت وميضاً ينبعث من أسفل الطائرة بعد ذلك بأجزاء من الثانية اندفع سيل من الرصاص الملتهب شقّ السماء ثم ضرب الأرض بعنف ثم شقّ طريقه على الأرض نحو الأجساد التي شلّها الذعر والذهول شاهدته يضرب الأرض لا لا لم يكن يضربها فقط كان يحفرها يحرثها بقوة ناثراً الحصى والتراب والشرر في الهواء ثم انقضّ على الأجساد المذهولة ضربها

مزّقها  نثر أشلاءها ودماءها في الهواء      عبر سيل الرصاص على بعد أمتـار منّي  لفحني الشرر والتراب المتطاير  تعالت في أنفي رائحة الدم والبارود.

أمسكت بيد "مريم" وجذبتها ثم بدأنا نعدو وسط الأجساد والغبـار والأشلاء، نتجاوزها، نصطدم بها، نتعثـر بهـا... في تلـك اللحظـات بـدا المعسكر سرمديّ الامتداد، وبـدت سـاحته مكتظّـة بـآلاف الأجـساد، لا أدري من أين أتت!! بـصعوبةٍ بالغـةٍ قطعنـا خمـسة أمتـار فقـط. في تلـك اللحظة فتحت الطائرة الثانية نيرانها. كانت أشدّ قرباً من الأولى. سـمعت أزيز الرصاص. سمعت خشخشة ظروفه الفارغة عـلى الأرض. سـمعت صـوت اختراقـه للأجـساد، وصـوت تفجـيره للـرؤوس. عـبر ومـيض الرصاص بجواري. شاهدته يخـترق أجـساداً أمـامي وجـواري. تنـاثرت دماء أحدهم على وجهي ورقبتي. لم نتوقف عن الركض. كان الرصـاص يلاحق الأجساد بإصرارٍ غريب، ونادراً ما كان يخطئ هدفه. لم ألتفت نحو أيٍّ من الطائرتين؛ لكنّي أتذكّر أنّي حينها تخيلتها تقفان في سـماء المعـسكر على علوٍ منخفض، وتطلقان نيرانهما الغزيرة بأريحيّة عـلى أفـراد المعـسكر. أتذكّر أنّي أيضاً شعرت وكأننـا قطيـعٌ مـن الغـنم حُشر في قفـص محكـم الإغلاق، ثم أدخلت عليه سكاكين القصّابين دون أن يملك أحدها أدنـى فرصة للفرار من الموت!!

ألقيتُ بجسدي في أوّل خندق تدريب قابلني  تبعتني "مريم" بأقل من ثانيتين  ضرب الرصاص الملتهب حواف الخندق  تناثر التراب على وجهينـا وجسدينا  تحررت من أسر ذهولي  التفـتُّ نحـو "مـريم"  رأيتهـا تلهـث وهي تجثو على ركبتيهـا  كانـت تمـسك ببنـدقيتها  وقبـل أن أتفـوّه بكلمـة واحدة  جذبت إبرة بندقيتها بسرعة ونهضت واقفة تطلق النار بكثافة نحـو

الأفق وحين انتهى مشط رصاصها جلست في قاع الخندق ثمّ أخرجت مشطاً آخر استبدلت به القديم وجذبت إبرة بندقيتها صرخت بها:

- ماذا تفعلين!!؟

لم تجب ولم تلتفت بل وقفت مرّةً أخرى ورفعت بندقيتها بيد واحدة وراحت تطلق النار بكثافةٍ بغضبٍ بكراهيةٍ بإصرارٍ عجيب لم أشاهده في مخلوق أبداً كان عملاً مجنوناً نعم كان كذلك فالطائرتان كانتا تمطران أرض المعسكر بالرصاص لا ليس أرض المعسكر فحسب بل وكلّ شيء يتحرك سرتُ منحنياً نحوها وأمسكت بيدها نفضتْ يدي جانباً ثم استبدلت مشطاً آخر وعادت لإطلاق النار أتذكّر أنّ بندقيتها أطلقت عشر طلقاتٍ فقط ثم توقفت عن إطلاق النار انحنت "مريم" في الخندق وحاولت عبثاً إعادة "تذخير" بندقيتها أو انتزاع مشط الرصاص منها في تلك اللحظة شاهدت ملامحها تختلج وتتأرجح بين الغضب والقهر وفي ذروة غضبها ذاك أطلقت شتيمةً بذيئة ثم أمسكت البندقيّة من ماصورتها وطوّحت بها بغضبٍ نحو الساحة الملتهبة.

أتذكّر أنّها في تلك اللحظة جثتْ على ركبتيها لاهثةً تجهش بالبكاء وتحدّق بذعرٍ في كفّها اليمنى المرتعشة أتذكّر أيضاً أنني في تلك اللحظة رأيتً لحم كفها ملسوعاً لا لا لم يكن ملسوعاً بل كان محترقاً ومهترئاً انتزعتُ شالها الملفوف حول رقبتها ولففتُ به كفّها بسرعة.

فجأةً دوى صوت صفيرٍ طويل في المكان تبعه صوت انفجارٍ قويٍّ في مبنى القيادة تناثرت الحجارة في الهواء ثم تساقطت على ساحة المعسكر جلست "مريم" في أرض الخندق اقتربتُ منها هزّت المكان انفجاراتٌ

أخرى عنيفة استقبلنا التراب والحصى والدخان واستقبلنا بضع طلقاتٍ ابتلعتها أكياس الرمل أتذكّر أنّي صرخت بها:

- لنغير مكاننا!

سرنا بضعة أمتار في الخندق صاروخٌ سقط على عربة مصفحّة كانت متوقّفة تحت شجرةٍ قريبة كان الانفجار قريباً منّا وكان أيضاً قوياً وعنيفاً دفعتنا موجته إلى الخلف سقطنا على الأرض وتهاوت على جسدينا الأتربة وأكياس الرمل.

لا أدري متى انتهى كل ذلك ولا متى غادرت الطائرتان ولا أذكر أيّ شيءٍ بهذا الخصوص ولا كم لبثتُ أسفل التراب وأكياس الرمل لكنّي حين فتحت عينيَّ وجدت صعوبةً في التحرر من كلّ ما ينوء به جسدي من أثقال وحين فعلت انتشلت جسد "مريم" الذي يرزح تحت أكياس الرمل كانت فاقدةً للوعي وكان التراب المعجون بالدم يغطي وجهها وشعر رأسها ورقبتها ضربت بكفي على خدّها مراتٍ حتّى استفاقت أذكر أنها حين استعادت وعيها شهقت شهقةً طويلةً ثم سعلت وبصقت عجينة سوداء من فمها أسندتها إلى جدار الخندق وأخرجت رأسي بحذر من حافة الخندق المدمر كنت أودُّ أن ألقي نظرةً على الخارج لأعرف ما جرى على الرغم من أنّ شعوراً عميقاً بالخوف يختلج بداخلي أتذكر حينها أنّي لم أستطع أن أمنع يديَ من الارتعاش ولم أستطع التخلص من جفاف حلقي من خلف أكياس الرمل الممزّقة أرسلت ناظري نحو ساحة المعسكر كانت الأدخنة ما زالت تنبعث من هنا وهناك. والأجساد الممزّقة متناثرة في كل مكان الدماء تغطي أرض المعسكر ببقعٍ سوداء متقاربة

رائحة الموت والدم والشواء تسيطر على كل شيء وقفت "مريم" جواري مترنّحة بوجهها المدمى حاوَلت أن تخرج من الخندق إلا أنّي منعتها أتذكّر أنّي قلت لها جازماً:

- ابقي هنا لم ينجُ أحد!!

في اليوم التالي لتلك المجزرة التي راح ضحيتها أكثر من (٢٢٢) مقاتلاً قررتْ فصائل الثورة الفلسطينيّة نصب مضاداتٍ للطائرات في المعسكر وفي الأماكن المطلّة عليه بعد ثلاثة أسابيع من ذلك كنت و"مريم" نقف كشاهدين أمام لجنة تحقيقٍ شُكّلت من فصائل الثورة الفلسطينيّة كانت اللجنة تحقق في أسباب المجزرة المريعة وتحدد المسؤوليات.

بعد شهرٍ وثلاثة عشر يوماً نشرت اللجنة نتائج تحقيقها في تقريرٍ مكوّن من (١٦٧ صفحة، أكدّت فيه وجود خيانة في قيادة المعسكر أفضت إلى تجميع المقاتلين وتقديمهم على طبق من ذهب للطائرتين المغيرتين ثم اختتمت تقريرها بقائمة تضم أسماء القتلى حين تفحصت أسماء من سقطوا في تلك المجزرة لم أجد اسم "صلاح صلاح" إطلاقاً كان هذا يعني أن الموت قد تركه أيضاً هذه المرّة وأنّه (صلاح سيكرر في مكان ما جملته باسماً:

- بيني وبين الموت خصام أزلي!

بالمناسبة "صلاح صلاح" نجا بأعجوبة من مذبحة "الكرنتينا" في الـ٧٦، وفي الـ٨٢ سيصاب بجروح خطيرة في معركة "المتحف" أثناء مشاركته في التصدي للاجتياح "الإسرائيلي" لبيروت وحين كان يقضي فترة علاجه من تلك الإصابة في مخيم "صبرا" نجا بأعجوبة من حائط

إعدام نصبته المليشيا في المخيم أتذكّر أنه روى لإحدى الصحف اللبنانية قصّةً ما جرى في المخيم وأكّد في روايته تلك أنّه رأى "إيلي حبيقة" ذاته يقود جيباً عسكرياً "إسرائيلياً" بمعية المليشيا التي اقتحمت المخيم.

"صلاح صلاح" ذلك المقاتل الشرس الذي استعصى على الموت أو بالأصحّ منحه الموت أكثر من فرصةٍ ليعيش عيشةً هنيئةً بعيدةً عن صخب الحرب سيلقى حتفه بعد ذلك بسنوات طويلة في إحدى الأسواق الشعبية في الدار البيضاء بالمملكة المغربية إثر طعنة بمفتاح براغٍ سددها إلى قلبه مراهق أمازيغيّ عن غير قصد أثناء محاولته فضّ شجارٍ عارضٍ بين مراهقين يصطادون السيّاح الأجانب.

لا أدري خلال تلك السنوات الطويلة كم تخطاه الموت وكم ابتسم "صلاح صلاح" وكم كرّر جملته الأزليّة!!

بعد تلك الحادثة المجزرة نُقلنا إلى معسكر آخر في البقاع كانت تستخدمه الجبهة الشعبيّة - القيادة العامة مقرّاً لها حين وصلنا المعسكر وجدناه خالياً ومجهزاً لاستقبالنا كنّا حينها (١٥٠) فرداً بعد ذلك بشهرين أخطرتني "مريم" في مساء يوم سبت بارد بأنّه تم اختياري لإجراء لقاءٍ صفحيٍّ مع الرفيق "أبو ليلى" "جمال خضر" أحد القادة الميدانيين لحركة فتح في بيروت الغربية في تلك الفترة كانت الأوضاع مأساوية في لبنان والحرب على أشدّها.

في صباح الأحد غادرنا المعسكر في البقاع متّجهين نحو بيروت على متن "رنج" تابعة لمنظمة التحرير تقودها "مريم" وقبل أن نصل إلى الضاحية الجنوبية توقفنا عند حواجز تنصبها بعض الفصائل الفلسطينية

الموالية لسوريا كـان الجنـود في تلـك الحـواجز يحـاولون اسـتفزازنا بـشتى الوسائل حقّقوا في هوياتنا نبّشوا حقائبنا نقّبوا في كـل إنـشٍ في سـيارتنا لكننا تجاهلنا كل ذلك وغادرنا لكن على مـشارف بـيروت توقفنـا أمـام حاجزٍ طيارٍ للجبهة الشعبيّة أمضى فيه الجنود أكثـر مـن سـاعتين ونـصف يفتّشون السيارة ومتعلقاتنا.

حـين نفـذنا إلى بـيروت بمبانيهـا المتلاحمـة توجـب علينـا التوغّـل في الأحياء الغربيّة الواقعة على خط التماس مع بيروت الـشرقيّة لـدواعٍ أمنيّـة أوقفت "مريم" السيارة قبل حوالى كيلومتر من المكان الـذي سـنقابل فيـه "أبو ليلى" والذي كنت أجهل موقعه حتّى تلك اللحظة حملنـا أسـلحتنا الشخصيّة وعبرنا الأزقّة والـشوارع، وجبـالاً مـن الركـام درت بعينـي في المكان كانت البيوت مبقورة الجدران بعض الجدران تهاوت وكشفت عـن محتويات ومرافق البيوت بعض المنازل احترقـت عـن بكـرة أبيهـا بعـد أن نخرت القذائف والرصاص جدرانها بعـضها تكـوم سـقفه فـوق جدرانـه وصار كتلةً غير مفهومـة مـن البـاطون تـبرز مـن جنباتهـا قـضبان الفـولاذ والأثاث ومزق الثياب كان الدمار مريعا ورائحة الموت تخيّم في المكـان في تلك المنطقة وعـلى شـعاع كيلـومتر محـاذٍ لخـطّ الـتماس لم أشـاهد بيتـاً مكتملاً ولم أسمع أيّ صوتٍ عدا صوت خشخـشة أقـدامنا عـلى الأرض المفروشة بالحطام.

لا يمكن لأيّ إنسان أن يتخيل مدى بشاعة ووحشة الـسير في بقعـة مـن الأرض بسط الموت عباءته عليها ونزعت مخالبه المتوحشة قلوب وأحـشاء من قضى فيها ثم ألقتها على قارعة الطرقـات تنغـل فيهـا العيـون المـشمئزة والديدان والحشرات.

ما زلت أتذكر خشخشة خطواتي على الحطام وأتـذكر كـفّ "مـريم" المعصوبة بالشاش وهي تشير إلى هناك وهنـاك كانـت تتحـدث لكنّـي لم أكن أسمع أو أعي ما تقوله كُنت مذهولاً مصعوقاً غير مـصدّقٍ خـلال تلك الفترة كنت أدرسُ الحرب من خلال دروسٍ نظريّةٍ أما التطبيق العمليّ لما درست لم يكن يتعدّى أرض المعسكرات لم أكن أتخيّل أن تكـون الحـرب بهذه البشاعة الأخبار والدروس والحكايا شيء والواقع شيءٌ آخر.

أتذكّر أنّي في مسيرتي تلك شعرت بأنفاس من قضى تلفح رقبتي ولمحت حدقاتهم المذعورة تراقبني من تحت الأنقاض، وسمعت آهاتهم وصرخاتهم المذعورة تسافر بين الزوايا المظلمة كما هو حال ضحكات أطفالهم في تلك اللحظـات البائـسة أتـذكّر أنّي رأيـت عـصافير الـصباح تحمـل أغـانيهم الصباحيّة تطوف بها فوق ركـام المـساكن وعـلى النـواصي المهجـورة ثـم تعلقها على شواهد القبور التي نصبت على عجل.

لم تكن تلك هي بيروت لم تكن تلك هي "سويـسرا الـشرق" لم تكـن تلك هي المدينة التي عشقتها كما عشقت هي الحيـاة أنكـرتُ الزوايـا التـي لطالما صافحتها أنكـرتُ النـواصي والـشوارع والأشـجار أنكـرتُ حتّـى هواءها أنكرت سُحُبها وحتّى شمسها التي بدت لي سمجةً وحزينة...!

ارتدّت عيناي ككرةٍ من المطاط من على الواجهـات المـدمّرة ومـن عـلى الزوايا المظلمة والأبواب المشرّعة والنوافـذ المحطّمـة الخـراب والوحـشة والموت في كلّ مكان شعرت بالاختناق برغبةٍ عظيمةٍ في الصراخ في ركل كلّ شيء في البصق على كلّ شيء في انتزاع بندقيتي وإطلاق الرصاص على كلّ شيء في نهاية المطاف صفعني الدوار وجـدتني أتهـاوى لا لم أتهـاوَ بل تركـت جـسدي يهـوي عـلى قطعـة بـاطون ضـخمة جلـست عليهـا

ووضعت كفي على صدري متعللاً بالإرهاق والتعب توقّفت "مريم" ثم التفتت نحوي ورفعت حاجبيها وقالت بسخرية:

- هل تعبت؟!

هززت رأسي لاهثاً ثم انتزعت مطرية الماء من خاصرتي وأفرغت جزءاً منها في فمي ثم حملت سلاحي وعدّلت وضعية الحقيبة الجلديّة التي تتدلّى من كتفي وعدت للسير أخوض مذهولاً عباب هذا البحر المتلاطم من الخراب.

بعد تلك المسيرة الطويلة أتذكر أنّنا وصلنا إلى أمام مبنى كبير كان فيما سبق فندقاً كبيراً (لا أتذكّر اسمه) لكنّي أتذكّر أن معارك شتّى دارت رحاها في هذه النقطة من بيروت للسيطرة على هذا المبنى بالذات قبل أن ندلف إلى ساحة المبنى توقفنا أمام نقطة تفتيش ثم عبرنا إليه.

كان المبنى مكوّناً من تسعة طوابق ويضم بضعة مكاتب لمنظمة التحرير الفلسطينيّة وغرفة عمليات ونقاط مراقبة ورصد تطل على بيروت الشرقيّة وتكشف معظم أحيائها سُدّت نوافذ المبنى بأكياسٍ من الرمل وبراميل مملوءةٍ بالحجارة تتخللها فتحات للرصد وأخرى للقنص خلال سني الحرب الماضية تعرض هذا المبنى لعدّة محاولاتٍ تفجير سواءٌ بسيارات مفخخة أو عبر إمطاره بقذائف الهاون والمورتر جُلُّ تلك المحاولات لم تفلح في الإجهاز عليه لكنّها تركته عاري الجدران مصدّعاً محفور الواجهات خالياً من أيّ أبواب أو نوافذ ولذلك جرى تدعيم جدرانه الداخلية بجدران سميكة من أكياس الرمل ومن القرميد نقبت خلالها شبكة من الممرات تمكن المقاتلين المتحصّنين في المبنى من التنقل بحريّةٍ وسرعة في الجهات الأربع لمواجهة أيّ طارئ.

لا أدري أيّ شعورٍ يخالج المرء حين يلجُ إلى مكانٍ كهذا ولا أدري ماهيّة الرائحة التي تفوح في المكان أتذكّر تلك الرائحة العجائبيّة كانت مزيجاً مريعاً من الروائح رائحة العطن رائحة الأجساد التي لم تغتسل منذ أيام رائحة الدخان رائحة النشادر وروائح أخرى لم أستطع تمييزها المكان بمجمله مظلم ورطب يولد في النفس شعوراً عمقياً بالوحشة ينزّ الموت من بين مفارق جدرانه التي تساقطت عنها طبقة الإسمنت المقاتلون هنا يرابطون منذ شهورٍ طويلة ظروف الحرب وحالة الاستنفار لم تترك لهم مجالاً لحلاقة شعر رؤوسهم أو لحاهم الذهول والتوتر والسهاد مطبوعان على الوجوه والأحداق هذا المكان ونظرا لأهميته بالنسبة للثورة الفلسطينيّة والفصائل اللبنانيّة المتحالفة معها سُمي بالمسبار وكان يحوي كافة التجهيزات التي تمكنه من أداء المهمة المرجوّة منه على أكمل وجه.

توقّفنا في الطابق الثالث وقفتُ ومن خلفي "مريم" كان الطابق خالياً من كلّ شيء عدا أكياس الرمل والأجساد المتحفّزة والرشاشات المصوّبة نحو بيروت الشرقيّة اقتربتُ من إحدى النوافذ وأرسلتُ ناظري عبر فتحةٍ في جدار من أكياس الرمل نحو فضاء بيروت الشرقيّة لا أتذكر ماذا كانت "مريم" تقول وهي تشير بكفّها المصابة نحو نقطة ما في بيروت الشرقيّة لكنّي أتذكر أنّي شاهدت في البعيد نقطة سوداء تقترب نحونا على ارتفاع منخفض أشرت نحو تلك النقطة أخذت "مريم" منظاراً من على أحد أكياس الرمل ووضعته على عينيها لثانية أو ثانيتين ثم ألقته بعيداً واستدارت راكضة وهي تصيح بصوتٍ عالٍ:

- فانتوم!...

دوت صرختها في المكان التقطتها الآذان المدربة أخلت الأجساد أماكنها لحقتُ بها الدوي البعيد يقترب ويزداد وضوحاً الأجساد تتدافع في الممرّات والسلالم وفجأةً شقّ كل ذلك الضجيج صوت صفيرٍ عالٍ ثم أعقبه صوت انفجار عات اهتزّ له المكان وتساقطت معه كتل الإسمنت وتطايرت الأحجار في كل مكان دفعتنا موجة الانفجار من أعلى السلم في الطابق الثاني واستقرت أجسادنا في بهو الطابق الأول ضجّ المكان بالصياح والضجيج تعالى الخدر في أوصالي وبدأ الطنين يغزو سمعي ثم ساد الصمت تماماً أظلم المكان بسحابةٍ ثقيلةٍ وخانقةٍ من الغبار والكبريت والدم نهضت بالكاد فتحت عينيّ شاهدت جسد "مريم" مسجى جواري أمسكت بيدها ثم جذبتها وأنا أصرخ بكلّ صوتي:

- هيّا لنغادر ستعود الطائرة!!

لا أدري إن كانت سمعتني أم لا لكني أمسكت بيدها وجذبتها بقوّةٍ ثم ساعدتها على الوقوف والسير عبر الظلمة والحطام على مقربةٍ منّي وقف مقاتل فلسطينيّ غطاه الغبار وسالت الدماء من أنفه وأذنيه كان يمسك بندقيته بيد وبالأخرى يشير للخارجين من "المسبار" ويدلّهم في ظلمة الغبار والذهول على طريق الخروج شاهدته يصرخ وشاهدت ملامحه الغاضبة المتحفّزة وعينيه اللّتين تتحديان الموت بإصرارٍ وتحدٍّ لم يكن يأبه لمصيره ولا للموت الذي يحوم في المكان.

تزاحمت الأجساد عند المدخل اخترقنا الزحام في تلك اللحظة أكمل قائد الفانتوم التفافته فوق بيروت الغربيّة واستدار نحو الشرقيّة غادرنا المدخل مع من غادر وبدأنا نركض عبر الساحة الأماميّة لـ"المسبار". في

تلك اللحظات كان قائد الفانتوم يشقُّ طريقه بسرعة نحو "المسبار" وإبهامه على الزناد وحين وصلنا إلى منتصف الساحة تماماً ضغط إبهام الطيار على الزناد فشقّ سماء المنطقة صاروخان عبرا السماء بسرعةٍ متّجهين نحو مدخل "المسبار" المكتّظ بالأجساد.

كانت الساحة الأماميّة خالية من أي شيء يمكن الاحتماء به من الانفجار كنّا نركض بهلعٍ بهستيريا بجنونٍ باضطرابٍ نسابق الزمن نسابق التفافة الطائرة نسابق انقضاضة إبهام الطيار على الزناد نسابق صواريخه إنّه لشيءٌ رهيب عندما يسكنك الخوف عندما تشعر بأنّك هدفٌ بأنّك طريدةٌ ألقاها سوء طالعها أمام بندقيّة صياد لا يخطئ هدفه!!

حين سمعت فرقعة الصاروخين وهما يشقّان السماء لا أدري كيف لمحت حوض زهورٍ جافاً يقع جوار شجرة أرز جافّة أيضاً جذبت يد "مريم" ثم دفعت بجسدها نحو حوض الزهور فسقطت فيه ثم ألقيت بجسدي عليها وغطيت رأسي بذراعيّ.

في تلك اللحظة دوى انفجار عنيف قذف بكلّ شيءٍ في الهواء أعقبه انفجار آخر نثر الحجارة وكتل الإسمنت في الهواء أحسست باللهيب يلفح ظهري، وبموجة ضغطٍ هائل تعتصر خلايا جسدي غادرت الطائرة وهي تجرّ خلفها ذيلاً طويلاً من الضجيج لا أذكر كم لبثنا في حوض الزهور لكنّي أتذكر أنّي نهضت مترنّحاً والدماء تسيل من أنفي ومن أذنيّ سعلت ثم بصقتُ الدم على الأرض مراراً ثم ساعدتُ "مريم" على النهوض كان الغبار والدخان يلفّان المكان شاهدت على الأرض أجساداً ممزّقة وأخرى مدمّاة التوت أطرافها ورؤوسها بأوضاع مزعجةٍ بضع

سيارات وثلاث شاحنات تحترق خنقني الغبار صيحات الألم والاستغاثة تسافران في المكان من خلف ستار الغبار الثقيل شاهدت أشباحاً مترنّحة متعثّرة تشقّ طريقها عبر الحطام المتناثر شاهدت أيضاً مبنى "المسبار" مكوّم على الأرض كديناصور ضخم قضى نحبه على حين غرّة فوق هذه البقعة من الأرض لقد انهار المبنى كليّاً نعم انهار المبنى كليّاً وسحق تحته كلّ من لم يستطع المغادرة.

كان ذلك لقاء آخر لي مع الموت كان قريبا منّي نعم كان قريباً منّي إلى درجةٍ لا تصدّق خطا بجواري لامست أطراف أجنحته ساقيّ، ولفحتني أنفاسه الباردة وحين غادر خلف وراءه دماراً وأشلاء ودماء.

يومها كانت مريم تحدّق حولها بذهولٍ بذعرٍ والدماء تسيل من أنفها وفمها دارت حول نفسها مرتين وهي تجهش بالبكاء ثم جثتْ على ركبتيها باستسلام، ونكست رأسها وظلّت تحدّق في الأرض لثوانٍ ثم شدّت قبضتيها إلى جوارها ورفعت رأسها نحو السماء المُغبرة وصرخت في وجهها صرخة عظيمة انتزعتها من أعماق أعماقها.

أذكر أنّ كلّ تلك الأحداث.... تركتني مهزوزاً قلقاً مشوّش الذهن أعاني من أرق ومن نومٍ متقطّع تتخلله نوباتٌ مفاجئة من حمى غريبة تضربني في أوقاتٍ غير منتظمةٍ حمى عجيبة تشبه في أعراضها أعراض حُمى الملاريا. طبيب المعسكر أحالني إلى طبيبٍ لبنانيّ يدعى" أحمد معروف" زرته في عيادته في حارة حريك وصف لي بعض الأدوية وأوصاني بالراحة التامّة، قررت أن امضي فترة الراحة في أحد الفنادق بعيداً عن جوّ المعسكرات.

خلال تلك الفترة.... كنت أغادر غرفتي وأسير أعبر الأزقّة والشوارع على غير هدىً ولا أتوقف!! إلّا حين يوقفني التعب أو الخطر في تلك الفترة أيضاً... وجدتني أدخّن وأشرب الكحول وأرتاد الحانات وأهذي في منامي المتقطّع وأصارع تلك الحمى الغريبة التي تنتابني والتي لم تفلح أدوية "أحمد معروف" في قتلها.

في إحدى الليالي كنت امضي سهرتي وحيداً في نادٍ ليليٍّ كنت أجلس إلى طاولةٍ منزويةٍ يخنقها الظلام من مكاني... كنت أراقب شارداً الضجيج والأجساد والوجوه والابتسامات لم يكن للحرب وجودٌ هنا ولم يكن للموت أيّ ذكرى في رؤوس من يحتفلون هنا أتذكّر أنّ أحدهم قال بصوت عالٍ بيروت كلّ أيامها أعياد.

ارتشفت رشفةً من المشروب اللاذع تعالت أصوات الموسيقى بيدين مرتعشتين أشعلت سيجارة وقبل أن أنفث دخانها جذبتها يدٌ من بين شفتيّ رفعت عينايّ فشاهدت أمامي جسداً أنثوياً تفوح منه رائحة عطرٍ ربيعيٍّ أخّاذٍ توقّعت أن تكون أنثى ضائعةتبحث عن جليس أو بائعة هوىً تعرض خدماتها على الساهرين أشعلت قداحتي ورفعتها لأتبيّن ملامح صاحبة الجسد على وقع ضوء اللهب المتراقص شاهدت "مريم" تقف أمامي لا لم تكن "مريم" بل كانت نسخة مطوّرة من "مريم" ابنة الحرب والمعسكرات كانت متبرّجة تضع على رأسها شعراً قصيراً مستعاراً وترتدي فستان سهرة أحمر يكشف جزءاً كبيراً من ظهرها وينحسر حتّى منتصف صدرها لم تقل شيئاً!! ابتسمت.. ثم وضعت السيجارة بين شفتيها وقالت وهي تجذب الكرسي لتجلس:

- هل تسمح؟

كنت في غمرة الذهول وكانت يدي ما تزال ترفع القدّاحة المشتعلة، لمح النادل شعلتها فتقدّم نحو مائدتي يحمل في يده دفتراً صغيرا وصحناً عليه كأسين من البلور وزجاجة شمبانيا أتذكّر أني هممت بصرفه، لكن "مريم" سبقتني وطلبت عشاءً ومشروباً إضافياً ثم التقطت القدّاحة من يدي وأشعلت شمعةً كبيرةً تتوسط المائدة.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أشاهد فيها "مريم" بهذه الهيئة لمرّاتٍ ومرّاتٍ حدّقت فيها بدت لي غريبة.... ولا تمتُّ إلى شخصيّة "مريم" التي عرفتها بأيّ صلة أتذكّر أننا أكلنا وشربنا ورقصنا وتحدّثنا في كلّ شيء. وأتذكّر أيضاً أني ضحكت بعمق بقوّة وقذفتُ من رئتي بأكوامٍ هائلةٍ من السخام والرماد والغبار.

وقبل أن يدنو الفجر بساعاتٍ قليلةٍ... غادرنا الملهى كانت السماء صافيةً والنجوم تتلألأ بفرحٍ وكان الهواء بارداً ومشبعاً برائحة الصنوبر. سرنا صامتين على الأرصفة الهاجعة كانت "مريم" تطوح بحقيبة يدها إلى الأمام والخلف على غير معنىً ثم أمسكت ذراعي بيديها واتكأت برأسها على كتفي وهى تسيربكسلٍ مصطنع وحده صوت كعب حذائها العالي... كان يمزّق صمت المكان!! بعد أن قطعنا بضع خطوات سبقتني إلى الأمام بخطوتين ثم توقفت والتفتت نحوي ثم أخفت ذراعيها خلف ظهرها وظلّت تحدّق بي باسمةً قبل أن تقول بغنجٍ:

- ليس لديّ مكانٌ لأذهب إليه!

أنهت كلماتها... وهى تبتسم ابتسامةً فاتنةً، أضاءت ما تبقّى من ظلمة الليل، مددت ذراعي نحوها، فاقتربت مني بخطواتٍ طفوليّةٍ سريعةٍ، وانطوت تحت ذراعي كقطة مدللة، كانت لذيذة، دافئة، تفيض بالعاطفة،

شعرت بها تتغلغل بداخلي تجرّ خلفها قوساً بهيجاً من عطرٍ ربيعيٍّ أخّاذٍ، استحوذ على جُلّ تفكيري وحملني إلى مشارف غيبوبة أفيونيه لذيذة. أتذكّر لحظتها أني شاهدت كلّ شيءٍ يبتسم، الجدران، الأرصفة، أعمدة النور، وجه شرطيٍّ ليليٍّ راجلٍ، وجه مومسٍ بدينةٍ مطليّ بالمساحيق، كنتُ في حُلم لذيذ لم أشأ الإفاقة منه... بعد لحظاتٍ أشرتُ إلى سيارة تاكسي يتيمة تسير في الشارع الخالي بكسل، توقفت، دلفنا إليها، جلست "مريم" إلى جواري ووضعت رأسها على صدري وعلى شفتيها شبح ابتسامة ناعمة، سارت بنا السيارة عبر الشوارع والظلام والوحشة، وتوقفت أمام الفندق الذي أنزل فيه.

فتحتُ عيناي على وقع بردٍ رهيبٍ يعتصرني وألم شديدٍ يقضم أطرافي كانت أولى ساعات الشمس قد بدأت بنذر خجولةٍ من الضوء... تجاهد بقايا الليل باستماتة!! بحركة متشنّجة طويت اللحاف حول جسدي العاري المرتعد ثم مددت يدي نحو منضدة مجاورة للسرير والتقطت علبة أسبرين مضغت منها قرصين على عجلٍ واعتدلت جالساً على حافة سريري حاولت جاهداً كتم آهاتي وإخفاء اصطكاك أسناني ارتديت بصعوبة بنطالاً وكنزةً صوفيّةً وجوارباً كانت مرميّة أسفل السرير وفجأةً دارت الجدران في عيني وانقبضت أحشائي اندفعتُ مسرعا نحو الحمام، وأمام المغسلة أفرغت ما في جوفي بعد مارثون مؤلم من التشنجات والتقلصات وبعد أن انتهيت غسلتُ وجهي ثم وقفت واهناً لاهثاً... أحدّق في وجهي المتموّج على صفحة المرآة للحظات!! ثم غادرت الحمام. كانت "مريم" ما تزال نائمةً على جانبها الأيسر دسست جسدي المرتعد أسفل اللحاف جمعتُ أطرافه حول وجهي صارعت ضربات البرد والحمى وحين بدأ الهدوء يعود إلى نفسي نقلتُ ناظري نحو "مريم" كانت أنفاسها الرتيبة

والعميقة تشي بأنها تغطّ في نومٍ عميق ظللت أحدّق فيها على غير انطباع أتمعّن في تقاسيم وجهها في عينيها المغمضتين وشفتيها المزمومتين اللتين مازالتا تحملان بقايا ابتسامة وبقايا أحمر شفاه قرمزيّ.

حرّكت "مريم" يدها حركةً عفويّةً ثم انقلبت على ظهرها فانحلّ لحافها كاشفاً عن جسدها البرونزيّ، خُيّل إليّ أنّي أحدّق في تمثالٍ برونزيٍّ... لآلهةٍ رومانيّةٍ عتيدة أخذت من نساء الأرض أجمل ما فيهن واختصته لنفسها. دفعني هذا الخاطر لأن أمدّ إصبعي وأمررها على تضاريس وتعرجات جسدها على إثر ذلك فتحت عينيها ونظرت نحوي نظرةً عميقةً وكسولةً ثمّ أغمضت عينيها.

عاودتُ التحديق في وجهها شاهدت ملامحه تتجعد وشاهدتُ سائلاً أسوداً ثقيلاً يسيل من فمها وأنفها وأُذنيها ذُعرتُ هممت بأن أمدّ يدي نحوها أو أنطق اسمها وقبل أن تصل كفي إليها... فتحت عينيها اللتين طمسهما السواد ثم اختلجت ملامحها وكشرت عن أنياب مخيفة ترجعتُ مذعوراً ثم أغمضت عينيّ وحين فتحتهما وجدتني متكوراً أسفل اللحاف ووجدت "مريم" نائمة على سريرها.

وفي إحدى ليالي السهاد وبعد أن شعرت بأن حالتي الذهنيّة تسوء يوماً بعد يوم، قررت مغادرة لبنان بعد أن تنقضي أعياد الميلاد أي بعد أقل من شهر تركتُ الأيام المتبقية تمضي كيفما تشاء كنت فقط أسير معها أو بالأصح تركتها تدفعني وتسير بي كيفما تشاء خلالها خلدتُ لراحةٍ طويلة الأجل في غرفتي ولم أكن أغادرها إلّا في حالاتٍ نادرة جداً أتذكّر أن "مريم" زارتني في أمسية سبت ماطرة كانت ترتدي معطفاً بنيّاً من الجلد وتحمل بيدها مظلّةً سوداء صغيرة حين رأتني على تلك الحالة من الوهن

والعزلة... عرضت عليّ بإلحاح العودة إلى صخب المعسكر!! في البداية عارضت لكنها ألحّت ووضعت أمامي عدّة مبررات لتلك العودة في نهاية المطاف استسلمتُ لرغبتها ولمبرراتها وحين تأكدت من انتصارها ابتسمت ثم جلست على طرف سريري وأمسكت بكفي بين كفيها ثم قالت وهي تنظر في عينيَّ مباشرةً:

- لا تأكل نفسك!! فليس للعرب عدوٌّ أشدّ ضراوةً عليهم من أنفسهم.

لا أذكر أيَّ ردٍّ لي عليها لكنني وبعد سنوات طويلة فكرت في كلماتها تلك ووجدتها صائبةً وتحمل حقيقةً يتعامى عن رؤيتها كثيرون!!

غداة عيد الميلاد وفي تمام الحادية عشرة صباحاً كنّا في المعسكر وفوجئنا بسيارة رنج" زرقاء تنهب أرض المعسكر بقوّة كانت تقل أفراد حراسة "أبو سطام" أحد القادة السابقين في "أيلول الأسود".

أخبرنا مرافقوه بأنّه سيزور المعسكر بمعية فصيل من الجيش الأحمر اليابانيّ للاطلاع على الجاهزيّة القتاليّة وعلى مستوى أداء أفراد المعسكر.

كانت الزيارة استثنائيّة وغير متوقعة في هذه ظرف إلّا أن حالة التأهب القصوى التي تعيشها معسكرات الثورة الفلسطينيّة جعلت الزيارة عاديّة وربّما أقل من عاديّة فقد كان كلُّ شيءٍ في مكانه وعلى أحسن ما يرام.

اصطف الفدائيون في صفوف عرضية مرتّبة لاستقبال الضيوف ترجّل "أبو سطام" من سيارة "رنج" زرقاء قدّمت أخيراً كان رجلاً ضخماً أسمر البشرة يرتدي اللباس العسكريّ ويلفّ حول رقبته شالاً فلسطينياً.

كان "أبو سطام" كما علمت فيما بعد قائداً سابقاً في "أيلول الأسود" هُجر من غزة مع عائلته إلى الأردن عقب كارثة يونيو ١٩٦٧ بأيام وهناك انخرط في العمل الفدائيّ ثمّ غادر الأردن بعد أحداث أيلول الأسود في الـ٧٢ واستقر في لبنان.

توقّفت سياراتٌ أخرى تتبع منظمة التحرير الفلسطينيّة ترجّل منها الفصيل اليابانيّ وسار الجميع بمعية "أبو سطام" يستعرضون الفدائيين.

وقف أمامي "أبو سطام" بقامته العاتية وشعر رأسه الرماديّ وعينيه الذئبيتين كان يتحدّث إلى الرفاق اليابانيين بإنجليزيّة طليقة لا أتذكّر ماذا قال لهم حتى ضحك الفصيل اليابانيّ برمته لكني أتذكر حين تحجرت الابتسامة حول شفتيه وحين اتسعت عيناه وهما تحدّقان نحوي بذعر. وأتذكر أيضاً أن يده الضخمة امتدت بسرعةٍ نحو المسدس الذي يتدلّى من جراب جلديٍّ أسفل إبطه.

لا أدري ما الذي عصف بي في تلك اللحظة سكنت كل الأصوات تحجرت ابتسامات الفصيل الياباني وشحبت وجوههم أشجار السياج تضاءلت وتقزّمت والسيارات المتوقفة على مقربة منا غدت علب كبريت ملوّنة.

وقبل أن أنبس ببنت شفة أو أنتبه إلى كيس بلاستيكي أزرق يحلق في سماء المنطقة انفجر خلفي بركانٌ قذفني بعنفٍ نحو "أبو سطام" الذي ما زالت يده تعبر المسافة الخرافيّة التي تفصلها عن المسدس تراجع "أبو سطام" إلى الخلف خطوات وقعتُ على الأرض بعنفٍ شاهدت أقداماً تتجاوزني ثم تعالت الصرخات وتمازجت الأجساد ثم سمعت ثماني طلقات سقط بعدها جسد ثقيل على الأرض على بعد ثلاثة أمتارٍ مني في

خضّم الضجيج والغبار نهضت من عثرتي واعتدلت واقفاً عمّت الفوضى المكان أحاط الرفاق بـ"أبو سطام" وبالفصيل اليابانيّ عبرت الزحام والأجساد الراكضة استطعت أن أرى "أبو سطام" يسير مستنداً إلى أجساد وسواعد الرفاق وهو يمسك بيدٍ تنزف الدماء من بين أصابعها خنجراً مغروساً في صدره العريض المصبوغ بالدم.

تخطيت الأجساد اقتربت من جسد الفتاة العشرينيّة التي هاجمت بخنجرها "أبو سطام" كانت ملقاة على وجهها فوق سبخةٍ قاتمةٍ من الدم والطين في اللحظة التي دنوت فيها من جسد الفتاة غادرت جميع السيارات المعسكر وفي اللحظة التالية سمعت خوار الفتاة وشاهدت أنفاسها تعفر تراب الأرض جلست جوارها ثم مددت يدي وقلبت وجهها لا أدري ما الذي دفعني لفعل ذلك حين شاهدت وجهها المعجون بالدم والتراب هوت صاعقةٌ على رأسي وألقتني في دوّامة الخدر والذهول كان الجسد المسجّى هو جسد "مريم" والأطراف الملتوية على التراب هي أطراف "مريم"، والفم المملوء بالدم والتراب هو فم "مريم"، والعينان الجاحظتان اللتان لم تفارقهما نظرة الغضب هما عينا "مريم" سمعت خوارها مرة أخرى رفعتُ عينيَّ في الزحام والفوضى والوجوه المكشّرة وأطلقت نداءً عفويّاً غبيّاً أحمقَ:

- ما زالت حيّة ما زالت حيّة!...

على وقع النداء ركض نحوي ثلاثةٌ من الفدائيين فرشت كفّي نحوهم وكدت أن أكرر ندائي لكن حركتهم كانت أسرع من كلماتي اقتربوا ونكسّوا فوّهات أسلحتهم وأطلقوا النار بجنون بشبق بكراهيّة لا حدود لها!

تراجعت على مؤخرتي إلى الخلف عبر الوميض الملتهب أمامي وضرب الجسد المسجّى تناثرت الدماء والأشلاء والحصوات في الهواء وعلى جسدي امتلأ أنفي برائحة الدم والبارود بدا لي الأمر هرائيّاً يستحيل أن يكون حقيقة ويستحيل أن يكون حلماً إنه حدث هرائيّ بامتياز.

لا أدري كم استمر إطلاق النار ولم أعد أتذكر عدد الطلقات ولا أصواتها فقد فقدت حاسة السمع بعد ثانيتين من بدء إطلاق النار لكني ما زلت أتذكر وميض فوّهات الكلاشنكوف وما زلت أتذكر مظاريف الرصاص الفارغة وهي تسيل على الأرض بجنون وما زلت أتذكر الوجوه التي تفيض كراهية ومقتاً وهي تعتصر الزناد بغضبٍ جم!...

و ما زلت أيضاً أتذكّر الجسد المسجّى على الأرض باستسلام بأطراف ملتوية يستقبل الرصاص وينتفض وتتناثر أشلاؤه في الهواء كما لو كان مخدّةً من الريش!

**أطلقتُ زفرة طويلة**، وأنا أنفض كلّ شيءٍ جانباً ثم نهضت وتقدّمت ببطءٍ نحو زاوية الزنزانة ورحت أفرّغ انتفاخ مثانتي من صوت ارتطام البول بالمعدن وبالأرض خمنت موضع الدلو الحديديّ وبعد محاولاتٍ عديدةٍ نجحت في التصويب إلى عمقه.

فقط كلمة نعم كلمة فقط قد تقدح أفكارك وتجعلك تسترجع على غير رغبةٍ أو استعداد صوراً ومشاهد لا تدري من أين تأتي لكنها في المحصلة النهائيّة تبدو لك مألوفة تنبع من زاوية نائية تقع في أقاصي الوعي لم تصلها بعدُ مخالب الأفول.

شعرت بالبلل الدافئ يتسرب تحت قدميّ الحافيتين. وشعرت بجيش من الصراصير يفر مذعوراً فوق أصابعي محاولاً النجاة بحياته من ذلك

الطوفان الحارّ رغم ضعفي وقلّة حيلتي ما زلت أملك القـدرة عـلى بـثّ الرعب والخوف أعطاني هذا الخاطر شعوراً قوياً بالنصر وبالقوّة تحسست طريقي نحو زاويتي ثم جلست على الأرض أحدّق في اللاشيء!

يمرّ الوقت أو لا يمر لا أعرف تحديداً!

الصمت يلقي بثقله عليّ وتزداد وطأته على ذاتي الواهنـة طنـينٌ مـزعجٌ يتعالى بداخلي ويملأ فضاء الزنزانة أمسكت بأذني متألماً كتمتُ صرخـة ألمٍ متوحّشة كادت تغادر أعماقي وبدأت أخاطـب نفـسي عـلّ صـوتي يطـرد ذلك الطنين الذي يتعالى بداخلي:

لا يوجد شيء هذا سراب يخلقه عقلك الباطن الـذي يحـاول التكيّـف مع رغبتك الشديدة في سماع أيّ صوت فكما تئنّ معدتك لطلـب الطعـام وكما يخلق عقلك السراب في الصحراء معبّراً عن حاجة جسمك إلى المـاء إذن فما تسمعه الآن ليس سـوى هلوسـة سـمعيّة وفي أحـسن الأحـوال لا يعدو كونه سراباً!

انتهت كلماتي وخـلال ثـوانٍ قليلـة انتهـت معهـا كـلّ الفـوضى التـي أحدثتها في هذا البحر الدبق من الصمت ثـم عـاد الـصمت مـرّة أخـرى يغلّف كلّ شيء أشعر بجسدي ينوء بثقله وأشعر بصدري يضيق وأشعر بـضلوعي تطقطـق كعـوارض سـفينة بائـسة تعتـصرها أذرع أخطبـوط أسطوريّ.

وجدت نفسي مجبراً على الزفير مراتٍ متتالية اعتقدت بأنّ ذلـك يمكنـه أن يساعدني على التخلص مـن الـضيق المتـصاعد بـداخلي وعـلى الـشعور المتعاظم بالاختناق ولكن دون جدوى!

# II

لا شيء جديد...

حاولت أن أغمض عينيّ علِّي أرى أطيافاً من الماضي لكنّي للأسف لم أشاهد سوى صورٍ سلبيّة لوجوه وأماكن غير واضحة المعالم أبدو وكأنّي أحدّق في نسخةٍ سلبيّة لفيلمٍ سينمائيٍّ طويل؛استمرار التحديق فيها يزيد من شعوري بالوحدة بالخوف وبالحيرة ولذلك أفضّل أن أطردها من ذهني على الأقل في هذه اللحظة لأعود للتحديق في عتمة الزنزانة.

ماذا حدث؟ هل جرى تجريدي حتى من الأحلام والذكريات على بوابة هذه الزنزانة؟!

تخيّلت شخصاً – أظنّه أنا – يقف أمام جهاز الكشف عن المعادن ويتمّ تجريده من كلّ شيء ممنوع دخوله الزنزانة بما في ذلك الأحلام والذكريات بدت لي الفكرة مضحك؛ انفجرتُ ضاحكاً بأعلى صوتي ثمّ انتابني ضحكٌ هستيريّ حاولت خلاله رفع صوتي بكلّ ما أوتيت من قوة، علّ صوتي يجذب أحد الحراس أو يصل إلى سكنة الزنازين المجاورة.

ضحكي الذي طال صار سمجاً ومصطنعاً خفّتْ وتيرته تدريجيّاً وحين خبا آثرت الصمت الصمت تماماً مسحت الدموع التي غسلت وجهي ثم أصخت السمع محاولاً رصد أيّ ردّة فعل أو سماع أيّ صوت.

طال انتظاري.. وطال...

بدت لي الفكرة غبيّة وبدا لي الانتظار عبثياً سألت نفسي سؤالاً عقيماً:

هل يوجد أحد في الزنزانة المجاورة؟!

نقّبت في ذاكراتي وفي كلّ استنتاجاتي وملاحظاتي باحثاً عن إجابة لهذا السؤال ولكن دون جدوى ظلّ السؤال يدور بداخلي في مسارات حلقيّة مزعجة لا نهائيّة الامتداد أثارت بداخلي زوبعة من الدوار وفي خضمّ كلّ ذلك وجدت نفسي أتذكّر - وعلى غير رغبةٍ أو موعدٍ - الكونت "دي مونت كريستو".

نعم لا أدري لمَ تذكّرت الكونت "دي مونت كريستو" في هذه اللحظة بالذات!!

هكذا كان اسمه ولا شك كان سجيناً في زنزانة قاسية رطبة ربّما تشبه إلى حدٍّ كبير هذه الزنزانة!

على وقع هذا الخاطر تحسست بأصابعي المرتعشة جدار الزنزانة أعترف بأن تصرفي هذا هو نتاج لميلاد فكرةٍ ميكروسكوبيّة بدأت تختلج بوهن في عمق أعماق لاوعيي لكنّي أبتسم الآن بعد أن قتلتها كليّاً نعم أبتسم بعد أن قتلتها كما تقتل ذبابةٌ مزعجةٌ في صباحات السبت!

لماذا قتلتها!!؟..

اممممممم.....!!

قتلتها لأنّي أعرف يقيناً أنّ الكونت "دي مونت كريستو" لم يفرّ من زنزانته بمجهوده وإصراره كما تحاول أن تقنعني تلك الفكرة الخرافيّة التي كانت تتبلور بداخلي قبل لحظات بل كان فراره نتاج عمل مضنٍ قام به القسّ "فاريا" على مدى سنوات طويلة نحت في أيامها وساعاتها وثوانيها الصخر بأظافره وصنع له سرداباً للفرار وحين دقّت ساعة الصفر عبر

القس سردابه المشبعة جدرانه بقطرات عرقه والملوّنة صخوره بحمرة دمه ومع كل خطوة كان يخطوها في سردابه كان يمنّي نفسه بربيع حريّةٍ جديد يهبُّ على خريف حياته البائسة.

حين انتهى القسّ "فاريا" من نقب آخر مليمترات الجدار الذي يفصله عن الحريّة وحين نفّذ إلى الجانب الآخر لم تصفعه خيوط الشمس ولم تهب في وجهه نسمات البحر العليلة؛ بل وجد نفسه في ظلمة أخرى، عطنة رطبة لا تختلف أبداً عن تلك الظلمة المقيتة التي غادرها.

في تلك اللحظة فقط أدرك القس يقيناً أن سوء الحظ جعله يخطئ في حساباته أثناء الحفر ليجد نفسه بعد سنوات من العمل المضني في زنزانة سجينٍ آخر!

بعد أيام، وبعد أن تمالك القس نفسه، وامتصّ صدمته، أدرك بحدس صوفي عتيق، أنّه لم يعد يملك أياماً في حياته البائسة تكفي لحفر سرداب آخر، فقرر مساعدة ذلك السجين المحظوظ على الفرار، وأعدّ له خطتين محكمتين.

الأولى خطّة للفرار من سجنه الرهيب، والثانية للفرار به من براثن شخصيّة وعقليّة البحّار، اللتين كان يعيش بهما حتى دخوله السجن. هاتان الخطتان ولدتا الحماسة والأمل في حياة البحار السجين، وهذا جعله يقيناً يفكر ويقرر، بعد أن كان خاملاً واهناً - مثلي تماماً، فراح يواصل البحث، عن طريقة للخلاص، بعد وفاة القسّ.

أعتقد أن البحار الكونت وبعد أن دخل زنزانته مضغه شعور متعاظم بالظلم وبالوحدة لأيام طويلة فغدا مستسلماً خانعاً وقانعاً بما ستبصقه الأيام في وجهه مثلي تماماً!

لماذا!؟..

لا أدري.....!!

فقط مجرد شعورٍ يخامرني يجعلني على يقينٍ من ذلك.

على أيّ حال فالواقع بغرابته بعيد كلّ البعد عن عجائبيّة الأفكار فلربّما أقرر أن أحذو حذو البحار الكونت لكني في قرارة ذاتي أخشى أن أنال مصير القسّ "فاريا" ولا أجني سوى التعب من عمل مضنٍ ودون أن أجد في النهاية للحريّة سبيلاً بل ربّما انتقلت من ضيق الزنزانة إلى ضيق القبر مصطحباً معي كلّ أحلامي وآمالي بالحريّة!

القسّ والكونت وجهان لعملة واحدة أحدهما يملك نصف الورقة الرابحة والآخر يملك النصف الآخر لا بدّ لأحدهما أن يتخلّى عن نصف ورقته كي يربح الآخر هذا تطابق وتكامل غريب فرضته الضرورة القصصيّة لا الوقائع الحقيقيّة وهذا شيءٌ وذاك شيءٌ آخر مختلف تماماً.

ولأنّي لا أريد أن ألعب دور القس "فاريا" فمن أين آتي لي بقس أو بمن يلعب دور القس في هذا الموقف العصيب أو على الأقل بمصادفة قصصية تخرجني من هذا الوضع المزري؟!

هوى الصمت من جديد وتعالى إيقاع الطنين في ذاتي وفي عمق أذنيّ.

مددت قدمي على قاع الزنزانة تحسست خشونتها بكعب قدمي كانت الأرضيّة مصنوعة من الإسمنت الخشن قد مضى عليها زمنٌ طويل أصبحت بعده وتحت وقع الرطوبة رخوة ومتآكلة ليست الأرضيّة فقط بل إن الرطوبة والقِدم ينشبان مخالبهما في كلّ الزوايا.

تحسست الأرضيّة من حولي ثم بدأت أقتلع حبات الحصى وأجمعها بجواري واحدة تلو أخرى وجدت في ذلك نشاطاً عفوياً يكسر حالة الرتابة والجمود التي أعيشها جمعت إلى جواري كومة من الحصى ستصبح هي رفيقتي لأيام طويلة قادمة!

وجدت نفسي تحت وطأة الفراغ أعدّها مراراً وتكراراً أبني منها برجاً وأحياناً منزلاً وربما هرماً فرعونياً!...

أخيراً...

وبعد أن أجهدتني الأفكار والأشكال...

رسمت بها وجهاً عابساً حزيناً نعم فعلت ذلك ولا أدري لمَ ظللت أنظر إليه مبهوراً وكأنها المرة الأولى التي أشاهد فيها وجهاً على ظهر هذا الكوكب وعشرات من المشاعر الغامضة تتصارع بعنفٍ داخلي دون أن أجد لها أيّ معنىً.

أعترف أنني بدأت أبتسم له وبمرور الوقت رحت أتحسسه وبعد حين وجدت نفسي أتحدث إليه أناقشه أحياناً أشاركه النكات والضحك والصراخ ألعب معه (oxo) أشكو إليه وأسمع شكواه بل وكثيراً ما كنا نعاقر البكاء العبثيّ معاً!

ذات يوم مظلم - كما هي عادة الأيام هنا - وأثناء حديثي معه عن الأنثروبولوجيا وتأثيرها على الوعي السياسيّ وعن أزمة الغذاء وحين هممت أن أسأله عن رأيه في أحداث ١١ أيلول وغزو العراق لفت انتباهي أنني لا أدري بأيّ اسم أدعوه.

نعم..

كيف لم أنتبه لهذا منذ البداية؟!

فالاسم يعطي للشيء قيمةً ومعنىً ولذلك لم أجد بُدّاً من أن أسمّيه نعم نعم فعلت ذلك حتّى أستطيع أن أرفع كلّ الحواجز التي قد تكون بين أي صديقين جديدين وبعد أن دارت عيناي في العتمة مرّات ومرّات وجدت اسماً يطفو على صفحة ذاكرتي ويلتصق بلساني بإصرارٍ عجيب فلم أجد بُدّاً من أن أطلق اسمه في الفراغ والصدى عشرات المرات.

اسم شعرت بأنّه يخلو من أيّ محتوى عاطفي لكن ارتدادات موسيقاه بداخلي لذيذة فحرف السين يطغى على جُلّ الإيقاع أشعر به يجلجل بداخلي كصفارة مركبٍ بخاريّ سئم الانتظار جلجلة مزعجة ولا شكّ لكنها لذيذة وتثير بداخلي حنيناً غريباً ومتوّحشاً غير مفهوم المغزى والمصدر لكنه بمجمله يزيد من قيمة وعظمة هذا الصديق الجديد.

أوه!!

نسيت أن أقول..

سميته "أنس"!!

واستبدلت ابتسامةً عريضة بعبوسه وحزنه وإن كانت مرسومةً بالصخر.

# III

عقلي خُلِقَ ليفكر  لساني خُلِقَ ليعبر عما يجول في ذهني  عيناي، وملامحي تعبّر عن رغباتي  أطرافي تعبّر عن صدق هذه الرغبات وإلحاحها.

هل يمكن أن أبقى في هذا البحر اللامتناهي من الصمت  لا أسمع إلا ما ندر من الأصوات  والتي غالباً ما تكون صوت ما أعتقد أنّه الحارس حين يأتيني بالماء والطعام  أو صوت قرقعة البول في الدلو الحديدي  هذا إن لم أدخل في حسابي الأصوات التي أصدرها أنا  كل هذه الأصوات أصبحت رتيبة الإيقاع  وأصبح وقعها مملاً على أذني.

بل إنّي أشعر بجفاف عظيم في حلقي  وبشلل يقيد حركة لساني يشعلان بداخلي رغبة مجنونة في التحدث  نعم  التحدث بكلّ ما يخطر على ذهني  وبكلّ ما يدور بخلدي  مع أني أدرك يقيناً أني سأبدو كعجوز مهذار أصابته نوبة من العته المتأخر أرغمته على بصق كلّ ما تختزنه ذاكرته  في وجه الأيام  التي لن تنتهي أبداً.

لكن حتّى وإن انسقت وراء رغبتي المجنونة في التحدّث  وفي سماع الأصوات  فمن سيسمعني؟  ومن سيناقشني؟  ومن سيعترض؟  ومن سيبصق في وجهي معترضاً؟!...

"أنس"!!!

في وسط الزنزانة  كان عمود من الضوء يتثال من فتحةٍ صغيرة في السقف  فعفر المكان بضباب ضوءٍ خجول  نقّلت بصري نحو الوجه

الباسم في قعر الزنزانة حاولت أن أتمعن في ملامحه الجامدة وبعد طول نظر أطلقت زفرة طويلة ثم أشحت ناظري نحو زاويةٍ أخرى.

"أنس"...

أحياناً يلجأ جسم الإنسان إلى اتخاذ تدابير وقائيّة ضدّ فيروس وضدّ أيّ عارض قد يجتاح الجسد البشري على حين غرّة وذلك لحماية الجسم البشريّ من الوقوع في براثن المرض.

أتذكر تجربة البذرة التي وضعها مدرس مادة الأحياء في التربة ثم وضع عليها صخرة تعوق نموها وخروجها إلى النور لكن البذرة النبتة قاومت ثقل الصخرة والتفَّتْ حولها ونبتت نباتاً سليماً على الرغم من العارض الذي اعترض طريقها نحو الحياة والضوء وهذا هو التدبير الوقائيّ الذي اتخذته النبتة للنجاة بنفسها من الموت.

إن ذهني الذي يقف على مشارف الذبول يعيد تخليق الحياة بصورة طوطمية تتناسب مع وضعي الراهن.

لقد صنعتُ طوطمي الخاص نعم لقد فعلت ذلك فعلته مدفوعاً بالبقية الباقية من دافعي الاجتماعي التي لم تطلها مخالب الذبول والنسيان.

يا للغرابة!!!

ألم يكن الإنسان في حقبة ما من الزمن يعبد الأصنام والكواكب والأنهار وربّما بعض ما دبَّ على الأرض؟!

بل إنّي كثيراً ما وقفت حائراً وربّما ساخراً وأنا أطالع كتب التاريخ التي تتحدّث عن عبادة الإنسان لأصنام مصنوعة من الحجر والفخار وغيره ولم أستطع حينها التوفيق بين فكرة أن يعبد مخلوق كالإنسان

بقدراته العقلية التي لا حدود لها مخلوقاً آخر أحياناً أو صنماً طوطماً صنعه بيديه أحياناً أخرى.

الآن ربّما أكون قد فهمت لماذا!!

فالغموض والخوف كفيلان بأن يمنحا قطعة حجر لا معنى لها قداسة ورهبة في قلوب من يؤمنون بها.

ولَكَم هو مضحك أن أعود لأقف في النقطة ذاتها التي وقف عليها الإنسان قبل آلاف السنوات!!!

التفتُّ ساخراً نحو "أنس" مزّقتُ الصمت الثقيل قائلاً وأنا أعزف بأناملي على مفاتيح بيانو غير مرئي:

- تحسبني ماركسيّاً؟! هل أبدو كذلك!؟ هه!؟ هل أبدو لك هرائيّاً، وأنا أتحدّث هكذا عن الدين والسخط!! هل أهزّ رأسي وأطرافي وأنا أهذي كفيدل كاسترو؟! فيدل، هل تعرفه؟! هه!! القبعة، السيجار، ورفيقه جيفارا؛ جيفارا، هل تعرفه!؟... عليك اللعنة! هل أبدو هرائياً إلى هذه الدرجة؟!!

لم يرد "أنس" ولم يحاول حتّى أن يشرح وجهة نظره أزعجني ذلك كثيراً بصقت عليه ثلاث مرات، وأنزويت إلى الجدار وعدت أحدّق في اللاشيء.

لم أكن ماركسيّاً أو كنت!!

لا أتذكّر لا أتذكّر تماماً ولا معنى لكلا الوضعين الآن فإن كُنت كذلك فلا بدّ أن الهزيمة تسيطر عليّ وإن لم أكن كذلك فلا بد أن الهزيمة تسيطر عليّ إذن في كلتا الحالتين لا فرق نعم لا فرق فالخراء هو الخراء سواء لفظته أجساد رجال "بيريا" أم لفظه جسد راهب بوذيّ يقطن أعالي

التبت أم وجدته صدفة ذات صباح في جيب معطفك أو فوجئت به ملفوفاً في جوف صندوق هدايا أرسل إليك بمناسبة عيد الحب فالشكل الخارجي واختلاف المصدر لا يغيّر من الجوهر شيئاً.

شيءٌ غريبٌ بداخلي يغلي كمرجل بخاريّ أنفاسي تتلاحق العرق يغمرني أطرافي تتخشب الصور تندفع إلى دهني صورة كتاب "كومونة باريس" بغلافه الأصفر صور مطبوعات "دار التقدم" الأنيقة صور "كارل ماركس" و"فريدريك إنجلز" اللذين يبدوان لمن لا يعرفهما كقديسين هربا من أحد أسفار العهد القديم.

يضجّ رأسي بأحداث الثورة الفرنسيّة نعم نعم يتعالى الضجيج بين جنبات جمجمتي ويمتلئ أنفي ورأسي برائحة الحرائق ورائحة الأجساد القذرة ورائحة الدم والبارود...

جيوش من الجياع والمظلومين ينقضون بحرابهم وبنادقهم على الظلم والطعام في أحد الشوارع المظلمة كمين تنصبه العيون الجاحظة والأجساد الهزيلة لعربة ملكية تحمل براميل من النبيذ الأيدي الجائعة تنقض عليها وتكتب بحمرة النبيذ على الجدران عنوان الثورة الحقيقي "دم".

الباستيل يسقط الدخان يلفّ باريس أعداء الثورة أسفل المقاصل الرؤوس المقطوعة يجرفها نهر السين خارج مملكة الفقراء...

كومونة باريس بعلمها الأحمر تنتصب صرخات ثائر تمزق السماء المكفهرة مساواة محبة وإخاء.

يسوع رحل حاملاً صليبه أجراس الكنائس تنام في قعر السين نزق الثوار يتعالى الفوضى تسري في البلاد رائحة الدم أصبحت كالمورفين

يتعاطاه الجميع دون وعي ودون حساب الجثث في الشوارع تنغلّ فيها الديدان والكلاب الضالة.

الديدان الطفيليّة والنباتات المتسلّقة تطفو على السطح أبناء الثورة تحت المقاصل نهر السين ما زال يجرف الرؤوس المقطوعة خارج المملكة المسروقة...

لا أدري لمَ تطفو هذه الأحداث ومعها ذلك الكتاب على صفحة ذهني كطوف تتقاذفه الأمواج على غير هدى!

كتاب ليس ذا أهميّة تذكّر لكنه ارتبط بشعورٍ خفي بداخلي نعم هذا هو التفسير المنطقيّ الوحيد لطفو هذا الكتاب على صفحة أفكاري بين الحين والآخر ارتبط بشعورٍ عميقٍ بالظلم لم تفلح الأيام في قتله أو على الأقلّ في طمس ملامحه بغبارها وما زالت آثاره باقيةً تستعر في داخلي على غير وعي مني ولا أجد سبيلاً للتحرر منها على الرغم من أنّي - الآن - لا أعي ولا أتذكّر مضمون هذا الشعور أو سببه.

ألم أقل سابقاً "إن الزنزانة جردتني من كل ذكرياتي!"

قلت ذلك! لا!

حقيقة لا أدري إن كنت فعلت أم لا!

لكني أجد نفسي أتذكّر حب الفقراء وحب العدالة التي تأخر قطار وصولها - ولا يبدو أنه سيأتي في يوم ما أتذكّر الخبز الجاف المرشوش بزيت غير صالح للاستخدام الحيوانيّ.

أتذكّر درنات البصل وكسرات الخبز في أيدٍ شاحبة جافة شققها طول الكدّ أتذكّر العدس المخلوط بالحصى والفول النابت المحشو بالديدان.

أتذكّر العيون التي تنتظر على الرصيف تصطاد عملاً  أتذكّر الأحذية طويلة العنق  الرفوش  السطول  الحبال  الثياب الملطّخة بالدهان والإسمنت...

أتذكّر الابتسامات التي لا تعرف للتذمّر طريقاً  أتذكّر المظاهرات الصاخبة  العمل السريّ  الحبال المضفورة من أسلاك الكهرباء  وهي تذرع تضاريس الأجساد المعلّقة باستسلام  كذبائح لم تلفظ أنفاسها بعد...

لم أكن ماركسياً  أو كنتُ    لا يهم ذلك الآن  ولم يعد هذا يعني لي شيئاً لكني على يقين من أن العدالة كانت تستأثر بمعظم تفكيري  وتوجّه كلّ تصرفاتي باتجاه معين  اتجاه ليس له أي لون.

أطلقت زفرةً عميقةً  وأعدت نظري مرّةً أخرى نحو وجه "أنس" المرسوم في قعر الزنزانة  ظللت أتمعّن في تفاصيل وجهه  الذي بدا لي كوجه إله أفريقيّ وقور  بدأت بقعة الضوء تنسحب تدريجياً من الزنزانة.

لحظاتٌ مرّت  ثم هبط الظلام سريعاً  وخانقاً كعادته  ليضع نهاية لنهار قصير عشته في هذه الزنزانة  لا يتجاوز عمره الساعة  وأعتقد أنه أقصر نهار وُجد على سطح هذا الكوكب  بل إنه ينافس في قصره كل الصباحات الاسكندنافيّة  والقطبيّة.

سمعت صوت الكوّة التي تحتلّ الجزء السفلي من باب الزنزانة الحديديّ تُفتح  وسمعت صوت وعاء الطعام يوضع على الأرض  التقطتُ الوعاء الفارغ، واتجهت مسرعاً نحو الباب  صاح الحارس بصوتٍ خشن  وهو يضرب الباب بأداة معدنيّة:

- الوعاء الفارغ يا بن الفاعلة    الوعاء الفارغ    الوعاء الفارغ!...

التقط الحارس الوعاء وهو يزمجر بكلماتٍ غاضبة غير مفهومة ثم أغلق باب الكوّة بعنفٍ أعقب ذلك صوت صرير المزلاج المعدنيّ يخدش معدن الباب ثمّ تكّة القفل ثم ساد صمت مرير.

اقتربتُ وألصقتُ أذني بالباب أصختُ السمع علّي أسمع أيّ صوت لنزيل أو حارس أو حتّى صوت باب آخر يفتح أو يغلق لأعرف على الأقلّ أنّي لستُ وحدي في هذا المكان لكنّي وبعد طول انتظار لم أسمع سوى عويل الرياح حملتُ وعاءي الماء والطعام وعدت إلى زاويتي أحاول استعادة ما حدث.

بدا لي كلّ ما جرى كضوضاء حجر أُلقي في وسط بحيرة هادئة عكّر صفوها للحظات، وفضّ رتابة سكونها ثم بعد ثوانٍ قليلة ابتلعت البحيرة كلّ شيء وعادت إلى سكونها الجنائزيّ وكأن شيئاً لم يكن.

بل يُخيّل لي أن ذلك المزيج المزعج من الأصوات الذي سمعته قبل قليل ليس سوى حلم نعم ليس سوى حلم قصير غادرني قبل أن أستوعبه وقبل أن يشبع فضولي ونهمي لأيّ شيء جديد!

ولولا أنّي ما زلت أقف ممسكاً بوعاءي الماء والطعام لكنت أيقنت بأنّي سقطت في دوّامة الهلوسة السمعيّة والبصريّة وهذا يعني يقيناً أن هذه الزنزانة قد أودت بي.

وضعت الوعاءين على الأرض ثم بدأت في تناول طعامي الذي لم أستطع أن أعرف ماهيته حتّى اليوم على الرغم من أنّي أتناوله ثلاث مرات في اليوم واحدة في النور الخافت واثنتين في الظلام.

في اللحظة التي تاهت فيها أصابعي في المزيج الرخو الدافئ خطر ببالي خاطر غريب جعلني أعتقد بأن هذه الزنزانة بُنيت لي وحدي!!!

أطرقت مفكّراً وعلى غير رغبةٍ التصقت عيناي بوجه "أنس" ذلك الإله الأفريقيّ الذي يتقيأ في مخيلتي - كلّما حدّقت فيه - أفكاراً وصوراً وأحداثاً لا نهاية لها.

لا أدري لمَ قفزتْ إلى ذهني في هذه اللحظة صورة "رودولف هس" بوجهه المربع ورباط عنقه النحيل...

وجدتني أتحدّث إلى "أنس":

يبدو ذا وجه مربع؟!..

هل تعرفه؟!..

الرجل الثالث في الرايخ الألمانيّ.

هل تذكرته؟!

بربك هل كان غبيّاً أم مريضاً أم كليهما حتّى يسير بقدميه إلى السجن! هل كان يعتقد أنّ السجن نزهةٌ أو حدثٌ عابرٌ بين أحداث رواية بوليسيّة صاخبة أو ربّما كإغفاءة لذيذة كإغفاءة الظهيرة!!

أم أنّه كان ضحية حبه لهتلر ولبلده!؟

أم أن للمصائب - أحياناً - وجهٌ جميلٌ نعمى عن رؤيته ربما بسبب انشغالنا بالتفكير بوجهها السيّئ!!

هكذا أحياناً ودون سابق إنذار تقفز الصور والأفكار إلى ذهني لا أدري لمَ!!

أراه الآن بالهيئة ذاتها التي وقف بها أمام محكمة نورنبيرغ نعم ما زالت ملامحه عالقة بذاكرتي لكنها الآن تزداد وضوحاً أكثر من أيّ وقت مضى لا أدري لماذا!

نعم أراه في قاعة المحكمة يقرأ بلامبالاة رواية بوليسيّة أثناء محاكمته ورفاقه وأراه قبل ذلك بسنواتٍ طويلة وهو يقبع في زنزانة انفراديّة باردة في إنجلترا - يُخيّل لي أنها مثل هذه الزنزانة التي أقبع فيها الآن- وقد تمّ تجريده من زيّه العسكري الذي يزيد من غروره وحُشِرَ جسده حشراً في بيجاما صوفيّة ضيقة أظنّها رماديّة!

في تلك الزنزانة البائسة ظلّ "هس" ينتظر أياماً طويلة ردّ "تشرشل" على عرض الصلح مع ألمانيا.

"تشرشل" هل تعرفه!!

رئيس الوزراء البريطانيّ ذلك الخرتيت العجوز الذي يمضغ طرف سيجار طول الوقت.

هل تذكرت صورته وهي تُعرض على شاشات التلفاز بالأبيض والأسود؟!...

في كلّ مرّة كنت أراه على شاشات التلفاز لا أدري لمَ يخامرني اعتقاد بأنه يرتدي حفاظاً صحياً أو أنّه مصاب بفتق إربي يرغمه على ارتداء حامل للخصيتين!

هل تذكرته!!

في تلك الزنزانة البائسة، ظلّ "هس" ينتظر الردّ، يمضغه الانتظار بعنف. كان على ثقة بأن كلّ شيء سيسير على ما يرام؛ لكنه سرعان ما ضاق ذرعاً بالزنزانة، وبالبيجاما الصوفيّة، التي تفور بالقمل ورائحة العرق البارد.

في إحدى الصباحات الرماديّة استيقظ "هس" وهو يشعر بخدرٍ يسري في أوصاله وبدوارٍ يملأ رأسه وحين لم يجد ما يفعله امتطى كلّ

زهوه وغروره وراح يذرع زنزانته جيئةً وذهاباً ينتظر ردّ "تشرشل" ثـم توقّف للحظات ومن نافـذة الزنزانـة التـي تقـع في أعـلى الجـدار أرسـل ناظريه نحو السماء الرماديّة ثم استعاد المشهد الأخير للقائه بزوجته وطفلـه في برلين أظنّها بكت وقتها لا أذكـر تحديـداً شـفتاه المرتعـشتان لم تفقـدا مذاق آخر قبلة طبعها على تلك الوجنة الحريريّة المنتظرة في برلين.

كان واثقاً من أن بريطانيا ستقبل الصلح ومن أنه سيغادر هـذه الزنزانـة المقيتة خلال وقتٍ قصير وأن الإنجليز سيعاملونه معاملـة تليـق بالرجـل الثالث في الـرايخ العظـيم ثـم يعـود إلى وطنـه ليُستقبَل هنـاك اسـتقبال الأبطال وكاد أن يكون محقاً في ذلك!

ذات صباح وعلى وقع الأناشيد الحماسية التي كان يبثّهـا راديـو بـرلين كان "هس" يؤدي تمارينه الـصباحية أمـام المـرآة المـشروخة المعلّقـة عـلى الجدار الأيسر لزنزانتـه أمـام المـرآة ذاتهـا مثـل مـشهد مـصافحته لرجـال الحكومة البريطانية الذين ينتظر استدعاءهم له في أي لحظة كـان يريـد أن يظهر بمظهر يليق بالرجل الثالث في الرايخ العظيم.

وعلى الرغم من أنّه مَثَّلَ الدور مراتٍ عديدة إلا أن مصافحته بدت - في نظره - باردة وتخلو من الزهـو والكبريـاء نظـف أذنـه بطـرف خنـصره باستغراق وعصبية ثـم دار بعينيـه في المكـان وعـاد إلى الخلـف خطـوات وعيناه مسمرتان على المرآة أعاد تمثيـل الـدور مـرات ومـرات أضـاف إلى الدور التحيّة النازيّة أداها هذه المرة كما يجب وهـو يهتـف بـصوت حـاد بحياة "هتلر" والرايخ وبعد أن شعر بالرضا من أدائه راح يـردد بحـماس وبصوت عالٍ النشيد الحماسيّ ذاته الذي يصدح به الراديـو لكنـه توقـف فجأة واقترب من المرآة أكثر وأكثر وباهتمام راح يتفقد ذقنه الحليق وشعر

حواجبه بطرف إصبعه أمسك بطرف شعرة طويلة تطلّ من فتحة منخريه كاد أن يجذبها وحين تقلصت ملامحه استعداداً للألم قطع راديو برلين نشيده الحماسي وجاء عبر الأثير صوت مذيع يتكلّم بلهجة معدنيّة متحفزّة يعلن عن بيان هام سيذاع بعد لحظات ترك "هس" الشعرة ونقل بصره واهتمامه إلى المذياع الأصفر الضخم الرابض في أقصى الزنزانة.

مضت اللحظات كخمس ثوانٍ تماماً ثم أذاع راديو برلين بياناً هامّاً باسم الرايخ الألمانيّ البيان اعتبر أن "هس" غادر ألمانيا إلى جهة غير معلومة وأكدّ البيان أن "هس" يعاني من لا أذكر تحديداً ما جاء في البيان لكن أظن أنه ذكر أن "هس" يعاني من هلوسة أو متاعب نفسيّة لا أتذكر تماماً ولا أدري ما الذي حصل في الدقائق الثلاث التي تلت سماع "هس" للبيان!

كما أنّه لا يمكنني تخيُّل ما حصل لكنّي أعتقد أنّ ذلك المعتوه كان يصرخ بكلّ صوته بين جدران زنزانته الانفراديّة التي غدت أكثر قسوة ووحشية من ذي قبل وهو يصف "هتلر" بابن الفاعلة!!

بيان "هتلر" خلط الأوراق بل وأودى بهس إلى الجحيم كل الشتائم التي كالها "هس" لهتلر لم تكن لتوفيه حقه أبداً!

فقد ظلّ "هس" يقبع بين جدران زنزانته الانفراديّة في معتقله السريّ يعاقر وحدته وهزيمته وخيبة أمله إضافةً إلى أكوام لا نهاية لها من الأدوية والعقاقير ومع ذلك ظلّ في قرارة نفسه واثقاً تمام الثقة بأن "هتلر" سينقذه وأن ألمانيا ستنتصر وأنه سيغادر الزنزانة المقيتة كان مخطئاً في الاعتقادين الأول والثاني وصائباً في الثالث.

تسألني كيف!؟

امممممم!!...

كان صائباً فقد غادر زنزانته بعد 27 عاماً قضاها في زنزانة انفراديّـة لا أتذكر تاريخ إطلاق سراحه لكنه كـان في سبعينيّات القـرن المـاضي ظـلّ "رودولف هس" تلك الفترة المربعة التـي تتعـدى ربـع قـرن في زنزانـة انفراديّة ضمن سـجن كبـير لا يـضم أحـداً سـواه ولا يـزوره أحـد عـلى الإطلاق.

يا للغرابة مـا تـراه فعـل في زنزانتـه الانفراديّـة طـوال ٢٧ سـنة أي (٣٢٤ شـــهراً أي (٩٨٥٥ يومـــاً أي: (٥٢٠.٢٣٦) ســـاعة أي ١٤.١٩١.٢٠٠ دقيقـة غـير الأكـل التبـول التـبرز والتحـديق في الجدار؟!!!

هل أقول قضم الأظافر؟ سماع الراديو؟ التدخين؟ القراءة؟!...

هل كان يستعيد أكثر لحظات حياته حميمية بمعيّة زوجته؟!

ألم تذبل تلك الذكريات بمرور الأيام؟!

أم أنه ظل يضاجع وسادته بعد أن رسـم بـالفحم عـلى وجههـا الأول وجه زوجته وعلى الوجه الآخر وجه "هتلر"؟!

نعم نعم أنا على يقين من أنه فعل ذلك ساعدته نوبات الهلوسـة التـي كان يعـاني منهـا في إتقـان الـدور والتفـنن في خلـق الـصور الأحـداث والأوضاع ولن أستغرب أبداً من نظرات حـراس الـسجن الـذين كـانوا باعتقادي يتلصصون عليه ويستمعون بشبق إلى آهات نشوته.

أتراه أثار جنون الرغبة في أجسادهم المترعة بالتعب والسهر؟!

أم أنّه ظلّ طوال تلك الأيام يرسم كل صباح وجه "هتلر" بالخراء على جدران الزنزانة؟!

أم أنّ كلّ ما سبق محض هراء وأن "هس" كان أكثر اتزاناً وعقلانيّة مما يقولون عنه فمضى خلال (٩.٨٥٥) يوماً يحاول ابتكار شتائم جديدة يمكن أن تضاف إلى القاموس العالمي للبذاءة؟!

حقيقة لا أدري!

ومهما تعددت الصور والافتراضات أجد نفسي في نهاية المطاف عاجزاً كلياً عن تخيُّل ما فعله "هس" لمواجهة ذلك الكم اللامتناهي من الفراغ ومن الوحدة والصمت.

وأجد نفسي عاجزاً عن تخمين الطريقة التي استطاع بها النجاة بذهنه من مخالب الجنون المتوحشة.

درت بعيني في صمت الزنزانة ثم انفجرت ضاحكاً نعم فعلت ذلك على غير رغبة مني ثم تحول ضحكي إلى نوبة عنيفة من الضحك الهستيريّ ألقتني وبعثرتني في كل أنحاء الزنزانة.

في نهاية المطاف وجدت نفسي ملقى في إحدى الزوايا الكئيبة أبكي بحرقة وبقهر يتخطيان كلّ تصور.

# IV

مرّ وقتٌ طويل وما زلت أجلسُ في زاويتي الأبديّة مسنداً ذقني إلى ركبتيّ ومطوّقاً ساقي بذراعي أفعل الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله هنا وأداوم على فعله لساعات طويلة ما هو أحدّق في اللاشيء بجمود ودونما سأم!

وأنا أحدّق في اللاشيء...

مددت يدي أتحسس وعاء الطعام غاصت أصابعي في المزيج الرخو الدافئ أحسست بأطراف خشنة مدببة تقفز فوق يدي سرت قشعريرةٌ باردةٌ في جسدي اختلجت عضلاتي باشمئزاز سحبت يدي بسرعة أدركت يقيناً أن الصراصير تتناول وجبتها بعد أن أوحى لها هدوئي بأنّي أغطّ في نوم عميق.

حين استعدتُ - على غير رغبةٍ مني - وقع أطراف هذه الحشرات على يدي سرت في جسدي قشعريرة اشمئزاز جديدة وعلى إثرها انتفض جسدي وبعفوية شديدة ركلتُ وعاء الطعام سمعته يتدحرج على الأرض ثم يصطدم بباب الزنزانة وهذا يعني يقيناً أن ذلك السائل الرخو الذي أتناوله يومياً غدا وليمة حصريّة لقبيلة الصراصير التي تشاطرني سُكنى هذه الزنزانة الرطبة.

مضى وقتٌ آخر بدأت بعده أشعر بانقباضات مؤلمة في أمعائي تعالت وتيرتها بمضي الوقت إنّه الجوع ولا شكّ نعم لا شيء سواه يضرب الأمعاء بهذا الإيقاع المؤلم قررت شرب جرعاتٍ إضافيّة من الماء فالماء

يمكّنه أن يمنع - لبعض الوقت - جدران معدتي الفارغة من الاحتكاك بعضها ببعض.

هدأت أمعائي وكفّت معدتي عن الانقباض وعاد الصمت بكلّ ثقله وبكلّ دبقه وبكلّ غازاته الخانقة أرهفت السمع تناهى إلى مسامعي صوت خشخشة خافتة أرهفت السمع أكثر وأكثر أكانت أصواتاً حقيقيّة؟ بالتأكيد حبوت على الأرض ببطءٍ دنوت بحذرٍ من مصدر الصوت أدركت أن جيوشاً من الصراصير غادرت جحورها واتجهت لحضور الوليمة الحصريّة التي كنت عرّابها الأحمق.

تعالت أصوات احتكاك أجسادها بعضها ببعض وتعالت أصوات نقرات أطرافها على الأرض وعلى وعاء الطعام وغدت أكثر وضوحاً وأكثر شبهاً بخطوات جيش رومانيّ عاتٍ أطلقه قيصر ملعون لتأديب بلدةٍ بائسة رفض فلاحوها وصانعو النبيذ فيها دفع الضرائب لجابي القيصر الذي اغتصب وهو في ذروة ثمالته فلّاحة يافعة عارمة الصدر خلف شجرة صنوبر معمّرة في عشيّة عيد ميلاد قارص.

نعم يخيل لي أن جيشاً جرّاراً من هذه الحشرات قد غطّى كل أرضيّة الزنزانة بل وغطّى جزءاً كبيراً من وجه "أنس" ومن ابتسامته الغرائبيّة مرّت ثوانٍ فقط قبل أن أبدأ بالشعور بوخز أطرافها المدببة وبقرون استشعارها وهي تتحسّس راحتي باحثة عن بقايا الطعام العالق بأصابعي.

فجأة ودونما تخطيط...

نهضت من مجلسي وغضبٌ عارمٌ يغلّفه شعورٌ بالاشمئزاز يفور بداخلي رفعت قدمي رحت أركل وأضرب الفراغ بجنون ثم رحتُ أهوي بقدميّ على الأرض بقوة وأنا أهتف بغضب وبهستيريا:

- مُوتي أيتها الحشرات النتنة   مُوتي!

سمعت فرقعات أجسادها تحت قدميّ الحافيتين  أحسست بسوائل لزجة تغلف قدميّ  ضج المكان برائحة مزعجة  ومقززة  كل ذلك رفع من وتيرة شعوري بالاشمئزاز  فتعالى جنوني أكثر  وازدادت حركاتي عصبية وجنوناً  وأنا أضرب الهواء بذراعي  محاولا تمزيق وجه ينزّ بالحقارة  يطارد ناظري بإصرار عجيب  يبصقني بابتسامة ازدراء مقيت!

لا أدري كم استمر هذا الجنون  لكني حين شعرت بالتعب وبالآلام شتّى في قدميّ  عدت إلى مجلسي  بأنفاس تتلاحق  وبقلب يركض مذعوراً ومجنوناً  مخلفاً وراءه صوت قرعات طبل أفريقي محموم  تطغى قرعاته المجنونة على كل الأصوات.

لا أهتمُ للتعب  ولا أهتم لكل الألم الذي أشعر به الآن  ما يهمني الآن نعم  ما يهمني الآن أني لم أعد أسمع صوت تلك الصراصير  ولا صوت خشخشة أجسادها  ولا نقرات أطرافها على الأرض وهي تفر هاربة.

على أيّ حال  إنها المرّة الأولى - منذ وقتٍ طويل - التي أسمع فيها دقّات قلبي على هذا النحو  ولكي أكون أكثر دقّة  منذ أن وجدتني هذه الزنزانة وأنا على يقين بأنّك ستجدني مجنوناً إن قلت بأني سعيد بهذا الحدث الغرائبي  وبكلّ ما حمله من مصادفات.

نقلت بصري نحو زاوية الزنزانة  حيث الدلو الحديديّ  حيث تقع - على ما أظنّ - قلعة الصراصير  وبعد طول استغراق  وجدتني أسأل نفسي لماذا فعلت ما فعلت!!

ظلّ السؤال ملتصقاً بذهني  بإصرارٍ عجيب  لكنّه في نهاية المطاف فارقني  بعد أن عجزت عن إيجاد إجابة شافية له  نعم  عجزت تماماً  فكلّ

الإجابات التي طفّت بداخلي كانت تحدثني بصوت عجوز شمطاء عن نزعة الشر الرابضة في عمق المخلوق البشري وعن الشعور بالخديعة وعن أفكار بوهميّة وسوداويّة أخرى بإمكانها ملء رأسَيْ "دور كايم" و"فرويد" بالصداع لثمانية عشر عاماً قادمة.

نقّلت بصري نحو وجه "أنس" الباسم في قعر الزنزانة بدت لي ابتسامته فسفوريّة مزعجة تخطيت شعوراً ملحّاً بالصداع وابتسمت ساخراً:

- ابتسم ولِمَ لا تبتسم!!

سرى الهدوء في جسدي وبدأ النوم يهوي ثقيلاً على ذهني...

زحفتُ نحو بطانيتي ثم ألقيت بثقل جسدي عليها كيفما اتفق سمعت صوت فرقعات خفيفة تحتها أحسست بأطرافها المدببة تسير بعصبية فوق المساحات المكشوفة من جسدي حقيقةً لم أعد أدري إن كانت هذه المخلوقات تهاجمني أم تفرّ مني!!

لا يهم نعم لا يهم أنا في غاية التعب وسأنام نعم سأنام لتفعل هي ما يحلو لها لم يعد لدي ما أخسره!

أغمضت عينيّ شعرت بجسدي يهوي في بئر حلزونيّة مظلمة ما لها من قرار وفجأة دوى صوتٌ رهيب فتحت عيني بسرعة صفعني ضوء ساطع ولفح وجهي هواء حار حاولت الحركة لكنّي شعرت بأطرافي ثقيلة ولا تستجيب لكل العزم الذي أضخه فيها مرت ثوانٍ قليلة قبل أن أستوعب ما يجري وحين فعلت صعقتني المفاجأة كلياً...

يا إلهي!!!

ما هذا؟؟!

ومتى حدث هذا؟ وكيف حدث؟؟!

اختنقت كلّ التساؤلات في داخلي وتلاشت كل الإجابات الافتراضيّة كثبان لا نهائيّة من الحيرة والخوف هي كلّ ما تبقى في جوفي نثرت غبارها على وعيي وعلى ذاتي وسارت به كمركبٍ أعمى مسلوب الإرادة إلى أقاصي المجهول.

أنا مقيد اليدين والقدمين إلى أرضيّة كوخٍ خشبيّ يحترق عند قدمي يقف متجاهلاً النيران والحرارة رجلٌ أصلعٌ ضخم مخيف نصفه الأعلى عارٍ من الثياب تطوّق أصابعه وساعديه حلقات معدنية ويشدّ وسطه بحزام جلدي عريض يحمل بيده سوطاً جلدياً طويلاً بدا لي هذا الضخم كجلّاد نموذجيّ فرَّ من إحدى حكايا "ألف ليلة وليلة" بإيعازٍ من أحدهم ليسومني سوء العذاب.

أطلق الضخم آهةً طويلة معفّرة ببخار الماء وبكم هائل من الكراهية والاشمئزاز ثم طوّح بسوطه عالياً، شقّ السوط الهواء بصفيرٍ طويل ثم ضرب قاع قدميّ اندفع تيار كهربائيّ من قاع قدميّ وعبر خارطة جسدي انتفضت خلايا جسدي المشلول بألم وتقلصت عضلاته لأجزاء من الثانية ثم أفسحت المجال لإعصار من الألم ليعصف بها دون رحمة.

صفير السوط يتوالى. آهات الجلّاد تعلو. قطرات بخار الماء تحتشد على أرنبة أنفه. ملامحه تزداد بشاعة ووحشية. وقع الألم يتعالى ويعتصر بوحشيّة كلّ خلايا جسدي. الكوخ بدأ يتهاوى تحت وطأة ألسنة اللهب. أجزاؤه المحترقة تتهاوى حولي، والشظايا الملتهبة تضرب وجهي وجسدي. ألقى الرجل الضخم بالسوط جانباً، ثم اقترب مني، دون أن يأبه للشظايا الملتهبة التي تذرع ظهره.

أحاول الصراخ  أحاول الابتعاد  أحاول الحركة  ولكـن دون جـدوى اقترب الرجل الضخم أكثر  وابتسم ابتسامة شيطانية تظهر تلذذه بما يحدث دنا مني  ثم أطبق بيده على عنقي  وهو يزمجر بصوت رهيب  يخرج من بـين أسنان معدنيّة مطبقة  تنعكس عليها ألسنة اللهب:

- لتمُتْ  عليك اللعنة      لتمُتْ!!

اعتصرت قبضته عنقي بقوّة  طقطقت فقرات عنقي تحت وطـأة الـضغط الرهيب  امتلأ صدري بالهواء الفاسد  تجمعت الدماء على صفحة وجهـي أطرافي تخدش الأرض والهـواء بـذعر  كلماتي التـي أحـاول أن أصرخ بهـا تحولت إلى رغـوة لزجـة تجمعـت في حلقـي وفي فمـي  حاولـت أن ألـتقط أنفاسي  لكن محاولاتي باءت بالفـشل  ازدادت قبـضته انقباضـاً وتوحـشاً علت زمجرته المخيفة بكلمات غاضبة غير مفهومـة  الآلام تعتـصر جـسدي الاختناق يدنو مني مدثراً بعباءته الرماديّة  المـوت يقـف خلفـه بخطـوتين حاملاً منجله الطويل  الشظايا الملتهبة تتـساقط بجـواري بعنـف  اللهيـب يلفح وجهي  مقاومتي بدأت تنحسر. الخدر يقضم أطرافي  ضـباب أسـود ثقيل يطفو على صفحة ذهني كبقعة نفـط مزعجـة  صـدري يكـاد ينفجـر بدافع لا إرادي  سحبت الهواء بكل ما أملك من قوة.

وفجأة!!...

آه  آه  آه  آه!...

نهضت مذعوراً  تكورت في زاوية الزنزانة  جمعت بذعر بقايـا بطـانيتي وطويت بها جسدي  ثـم دفنـت رأسي بـين فخـذيّ  وأنـا أصرخ مـذعوراً بكلمات عجماء ملتوية الحروف.

مرت عليّ لحظات مريرة من الرعب والاضطراب وبعد أن هدأ روعي حدقت فيها حولي ببطء كان عمود الضوء ينثال من سقف الزنزانة فهتفت غير مصدق وأنا على حافة البكاء:

- الحمد لله الحمد لله لقد كان حلماً الحمد لله كان حلماً!...

استجمعتُ قواي وحاولت الحركة لكني أحسستُ بآلام شتّى في مفاصلي وأطرافي وبعرق لزج يغمر جسدي ببطء مؤلم زحفتُ على مؤخرتي نحو بقعة الضوء تفحصّت قدميّ وجدتها ملطختين بمزيج جافٍ مكوّن من بقايا الطعام وبقايا أجساد وسوائل الصراصير المهروسة والأهمّ من ذلك أنها كانتا متورمتين وفيهما من الجروح النازفة ما عجزت عن إحصائه ويعجز ذهنك عن تصورّه.

بوهنٍ أخذتُ وعاء الماء وبدأت في غسل جروحي الملوّثة شدّ انتباهي انعكاس الضوء على سطح الإناء المعدنيّ تجاهلتُ الألم وعلى غير هدف ودون سابق تخطيط وجهتُ بقعة الضوء نحو الزوايا المظلمة في الزنزانة بدد الضوء جزءاً من تلك العتمة خُيّل إليّ أنّي أشاهد عالماً غريباً غير مألوف لي - وهذا صحيح. لا أدري لِمَ لمْ أفكر أبداً في استكشاف هذه الزنزانة أو حتّى في إلقاء نظرة جديّة إلى محتوياتها على الرغم من أني أملك الوقت الكافي لفعل أي شيء مهما كان ومهما كانت غرابته!!

ربّما لأن تفكيري وانتباهي كانا - على الرغم من ضعفهما - مشغولين بالتفكير بما يتعدّى هذه الزنزانة.

استمررت على هذا المنوال دقائق طويلة قطعها صوت الكوّة المعدنية تُفتح نهضت متعثّراً بألمي وضعفي ثم حملت وعاءي الماء والطعام وبادلتها بالأوعية الجديدة وهتفت بصوتٍ واهن:

- أنا مصاب بالحمى وقدماي مجروحتان وتنزفان.

سادت لحظات من الصمت قبل أن يغلق الحارس - كعادته - باب الكوّة بعنف دون أن ينبس ببنت شفة ظللت أحدّق بشرودٍ في الكوّة المغلقة ثم عدت إلى زاويتي يمضغني شعور عميق باليأس.

يقيناً لا أحد يهتم بي هنا أو يهتم لوجودي على الأقلّ من الناحية الإنسانيّة فلست بشراً في نظر هؤلاء لستُ سوى رقم نعم لست سوى رقم جامد نُقش في سجل يكتظ بآلاف الأرقام لا يلفت أي انتباه ولا يثير اهتمام أحد مواعيد الطعام هي مواعيد تأكيد تواجدي في هذا القبر الأزلي وعلى المدى البعيد لا يمكن التعويل على أي تغيير قد يطرأ على نمط تفكير سجاني فهو في عقيدته الجامدة لا يؤمن بغير نهايتين لهذا القطار الطويل من الأرقام إمّا أن يُطلق سراح أفراده وإما أن يتم ترحيلهم إلى القبر وكلتا النهايتين سعيدة بالنسبة إليه وترفع عن كاهله ثقلاً ينوء به ويقضّ مضجعه.

كما أنّي لا أستطيع أن أتخيل سعادة هذا السجّان حين يمسك قلم الحبر بعد طول صبر وطول انتظار ويشطّب به رقماً مدوناً منذ عصور على صفحة من صفحات سجله الضخم القديم رقم أثقل كاهله وأزعجه بالتزام مقيت أقلق راحته.

لحظاتٌ ثقيلة ومريرة مرّت قبل أن أسمع الكوّة تُفتح من جديد تقدمت نحوها على رؤوس أصابعي بسرعة ولأوّل مرّة لمحت يد السجان تضع لفافة ورقية على الأرض ثم تغلق الكوّة بعنف مخلفة وراءها عاصفة من الصمت الثقيل.

التقطت اللفافة الورقيّة وعدت إلى زاويتي على رؤوس أصابعي فتحت اللفافة وجدت فيها بعض القطن وبعض المراهم وأربعة أقراص في كيس بلاستيكيّ صغير رحت أنظّف جروحي بحرص وعيناي تسافران بين جروحي وبين الحساء المسفوح على الأرض ووجه "أنس".

لثوانٍ قليلة شاهدت يد السجّان، ولا أدري لمَ علقت صورة يده في ذهني! نعم، علقت صورتها في ذهني ككلّ الأشياء التي تفعل معي ذلك في هذه الزنزانة، وعلى غير رغبة مني. حاولت التخلص من صورتها، والتفكير في شيء آخر؛ إلا أنها تعود وتطفو على صفحة أفكاري ومخيلتي، بإصرارٍ عجيب لا أجد له سبباً، ولا أجد منه مفرّاً، سوى التفكير بها حدّ الاستغراق، تاركاً فيضاً لا نهائيّاً من الصور والأحداث، يتدفّق إلى ذاتي وإلى مخيلتي.

كانت يده مثل أيدي بني البشر بجلدٍ مغضّن تكسوه الشعيرات البيضاء وبخاتم زواج في البنصر وساعة قديمة في الرسغ لا أدري أي خاطر خطر لي وأنا أراقبها تنسلُّ عائدةً عبر الكوّة هل تشبه يد أبي؟!!

لا!

الحقّ يقال لا أتذكّر كيف كانت يد أبي ولا أتذكّر حتّى ملامحه ما يحضرني عنه الآن ليس سوى نسخةٍ سلبيّة لصورةٍ ثابتة أحاول أن أدقّق في تفاصيلها وأستحضر ملامح صاحبها لكن دون جدوى لكنّي أسمع بداخلي صوتاً خافتاً كأنّه يأتي من أعماق بئر سحيقة يخبرني بصوتٍ كفحيح أفعى ماكرة بأنّ تلك الصورة هي صورة أبي وأنّ تلك اليد التي رأيتها تشبه يد أبي.

لا بدّ أن هذه اليد (يد السجان أو الحارس تسيء معاملة الكثيرين هنا!!...

نعم!!

هل هي كذلك؟

لكنّها لم تفعل ذلك معي بل إنها نـاولتني قبـل لحظـات لفافـةً طبيّـة لأعتني بجروحي!!

هل أبدو غبياً؟!

هل أتحدّث كفتاةٍ ساذجة لا تعي ما يدور حولها!؟

ها؟!

أنا كذلك!!

عليك اللعنة!

يقيناً إنّه ليس شيطاناً وليس شريراً إنه يؤدّي عمله وحسب وإن لم يقم بهذا العمل على أكمل وجه سيقوم به شخص غيره لا شكّ في ذلك فهـو ليس مرغماً على أن يستمع إليّ أو يحسّ بآلامي فحيّـز العواطـف لديـه هنـا معدوم تماماً.

لكنه خارج أسوار هـذا العـدم السـرمديّ سـيتخلّى عـن كـلّ قـسوته وسيعيش حياته الطبيعيّة فلا بدّ أن لديـه أسرة وأطفـال وزوجـة ضـخمة بكرش كبير ولا بد أن طفلته تنتظره كل مساءً عند باب المنزل لتحتـضنه ولتكون أوّل من يعبث بما تحمله يداه من أكياس وأول من يبعثـر مـا تحويـه سترته باحثة عن قطع النقد المعدنيّة وقطع الحلوى.

وربّما امتدت يدها لتعبث بشاربه الضخم (هكذا أتخيلـه!) الـذي لا بـد أنه يثير الكثير من الرعب في قلوب من يقبعون في هذا السجن!

هل يشبه أبي!!

هل قلت هذا سابقاً!؟

لا أدري حقيقةً لا أدري لكنّي أتحدّث بكلّ ما يردّ على ذهني.

أوه نعم تذكّرت الآن تذكّرت ذلك الرجل الضخم أظن أنـه أبي لا أدري كيف عرفت ألم أقل لك سابقاً إن ذاكرتي ذوت ولم أعد أتذكّر شيئاً!!

لكن الذكريات تعود لي كأحلام يقظة، وكومضات متفرّقة وغير مترابطة.

ذلك الوجه القويّ ذو الشعر الأبيض هو وجه أبي شعورٌ قويّ يقـول لي ذلك وذلك الصوت الغريب الذي يتردد بـداخلي يخبرني بـذلك نعـم ذلك هو أبي بجسده الضخم يقف في غرفةٍ مطليّة باللون الأزرق الفـاتح وعلى جدرانها عُلقت سجادتان عريضتان إحداهما رُسم عليها صورة أسـد ضخم وجهه ينزُّ بالكسل والنعاس بل إن ملامح وجهه تعطي انطباعاً لمـن يراه بأنّ المصوّر أيقظه من نوم عميق باغته بجوار البحيرة بعـد ثلاثـة أيـام من الأرق المتواصل ثم التقط له هذه الصورة البائسة.

على الجدار المقابل عُلّقت السجادة الثانية وقد رُسم عليها بيت المقـدس والكعبة الشريفة أسـفل هـذه الـسجادة يرقـد سريـر معـدنيّ قـديم تـصر مفاصله كلّما هبّت عليه نسمة هواء.

في إحدى النافذتين المطلتين على الحوش إناء فخاريّ فيه ماءٌ وبعـض من أغصان الريحان وزهر النرجس أرضيّة الغرفة مفروشة بمشمّع سـماويّ بتقاطيع زرقاء.

أبي يقف إلى جوار وجـه الأسـد الكـسول زوجتـه تقـف قبـل الـسرير بخطوتين وقد شمرت عن ساعديها، وأشـارت بغـضب مـصطنع نحـو الباب المغلق وهي تقول بفم ملتوٍ شيئاً لا أسمعه.

أنا في الخارج أقف - بجسد خرج للتوّ من شرنقة الطفولة - بجوار شجرة رمّان قديمة أمسك بخرطوم ماء أسقي به الزرع ألمح وجه أبي يتقلص ثم شعيرات رأسه تقف يعتريني شعور بالخوف - يبدو أن هذا المشهد تكرر كثيراً في حياتي الماضية أعود خطوات إلى الخلف إلى جوار شجرة الرمّان تماماً غاصت قدماي الصغيرتان في الطين عبر زجاج النافذة شاهدت أبي يستلُّ من خاصرته حزامه العسكري الأخضر نعم كان حزاماً عريضاً أخضر اللون بثقوبٍ معدنيّة براقة أتذكّره تماماً عبر أبي فضاء الغرفة بخطواتٍ واسعة صاح بصوت هادر باسمي نعم صاح باسمي كما كان يفعل دائماً عندما يغضب مني.

كيف عرفت أنه اسمي؟!!

اممممممممم!!...

لا أدري!

و لم أعد أتذكّره على الرغم من أنه نطقه وأعاده إلى مخيلتي أحاول أن أتذكّره أو حتّى أن أستخدم إيقاعه الموسيقي للتعرف على حروفه نعم نعم إيقاعه الموسيقيّ أشعر بإيقاعه يدوي في جنبات جمجمتي كجرس كاتدرائيّة عتيقة بل أشعر بحروفه تتجمع على طرف لساني ككرةٍ من غزل البنات لكنها تذوي كلّما حاولت نطقها إنّه اسمٌ مألوفٌ للغاية هكذا أشعر به وأنا على يقين من أنّي سأتعرف عليه بمجرد أن أستعرض ولو جزءاً يسيراً من أسماء بني البشر لكن وكما قلت سابقاً ذاكرتي خاوية نعم خاوية تصفر الريح في جنباتها.

هل كررت هذه الجملة!!

هل أبعث على السأم؟!

سأحاول ألا أكون كذلك.

بقدمين حافيتين عبر أبي الحوش بثلاث خطوات داخل الغرفة زوجته تستجمع كلّ ابتساماتها وتبصقها عبر النافذة على وجهي المستغرب المذعور أغصان شجرة الرمّان حاولت أن تمنع الحزام من أن يهوي على الجسد النحيل لكنّ الحزام شقّ طريقه وغاص في الجسد الطافي على بحار من الدهشة والاستغراب.

لم ينتفض الجسد كما انتفضت أغصان الشجر ولم تبكِ عيناه كما بكت السماء ساعتها بل ظلّ يقف ضاماً يديه فوق صدره عيناه تحدقان بجمود في كومة الغضب التي تفور أمامه.

بيده العاتية أمسكني أبي من ياقة قميصي وجرّني نحو الداخل وهو يصيح بصوتٍ هادر وبكلامٍ كثير لا أتذكّر منه الآن سوى هذه الجملة:

- أنا أعرف من يخدش أفكارك أنا أعرف...

لم أفهم ما يعنيه ولم أعرف سبب ما يجري أو إلى أين يقودني التفتُّ إلى الخلف شاهدت زوجته تبتسم وهي تسترق النظر من فرجة الباب تعثّرتُ بحذاء جذبني أبي من ياقة قميصي بقسوة أكثر وأرغمني على الوقوف كدت أختنق سعلتُ صوت ضحكة تهادت من وراء فرجة الباب أبي لم يتوقف عن صراخه وشتائمه دلف غرفتي يجرّني خلفه بالقسوة ذاتها هذه المرّة وعلى غير عادتها بدت لي الغرفة على وسعها ضيقةً وباردة دار أبي بعينيه في المكان وهو يلوك بغضبٍ الجملة ذاتها:

- أعرف من يخدش أفكارك يا بن الكلب!

استقرت عيناه على رتلٍ من الكتب يقبع أسفل دولاب التلفزيون الأحمر الكبير اتّجه نحوها ثم التقطها وراح يرميها بغضب على الجدار المقابل وهو يصرخ بصوتٍ هادرٍ:

- هذه التي تخدش أفكارك يا بن الكلب الشيوعيّون يعلمونك قلّة الحياء!

كانت مطبوعات "دار التقدّم" تصفّق في فضاء الغرفة ثم تصطدم بالجدار وترتد عنه دون أن تصاب بضررٍ ثمّ تستقرّ على الأرض مفتوحة على صور لينين ماركس انجلز وبريجنيف الأربعة يحدّقون نحوي بجمود دون أن يحرّكوا ساكناً أو تبدو على وجوههم علامات الامتعاض وعدم الرضا!

دوى بداخلي النشيد الأمميّ ثم داهمني سؤال قديم:

ألست رفيقاً أمياً كما هو مفترض؟!

وكما يحدث في كلّ مرّة ذوى السؤال بداخلي قبل أن أجد له إجابة شافية أمام هذا الانكسار المريع عدتُ مرغماً أحدّق مذهولاً في صراخ أبي وفي الكتب التي تصفّق في فضاء الغرفة وفي تلك التي ترتد عن الجدار.

في تلك اللحظة قفزت إلى ذهني صورة "بوريس يلتسن" لا لا لم تقفز الصورة كباقي الصور التي تفعل ذلك معي بل وقف "بوريس يلتسن" أمامي هيلوجرافياً نعم نعم كان يقف في رأس الغرفة بشعره الأبيض الناصع ومعطفه الأسود الثقيل يحدّق نحوي بجمود والثمالة تنزّ من ملامحه المتعبة التي مضغتها الشيخوخة المبكرة تقدّم نحوي بخطواتٍ متثاقلة متجاهلاً كل ما يجري.

"ملامح يلتسن، التي شاهدتها في ذلك الحلم أو في تلك الومضة اختلفت كثيراً عن تلك التي شاهدتها عام ١٩٩١ عندما استولى على السلطة وكذا عنها في المرة الثانية التي شاهدته فيها وتحديداً في المؤتمر الصحفيّ الذي أعلن فيه أن روسيا ليست جمعية خيرية تمنح المساعدات للمحتاجين بدون حساب.

كان حينها شاباً فتياً منتشياً بالنصر الذي حققه ضد خصومه المتشددين في البرلمان نشوة النصر تلك جعلته أكثر جرأة في التعامل مع خصومه من رموز العهد البائد فقذف بالبقيّة الباقية من ساسة العهد السوفييتيّ كلًّا إلى موطنه الأصلي نعم أتذكّر ذلك تماماً كنّا وكان الروس يسمونه وقتها "المكنسة".

كان مكنسة بحق لم يدع معارضاً ولا متشدداً إلا وتخلص منه حتّى أولئك الذين أمسكوا العصا من الوسط أو فضلوا الانزواء وراء المثل البرجماتية إما اتّقاء لشر التكنوقراط السوفييت أو اتقاء لشرّ الوجوه الجديدة الصاعدة.

فوزير الخارجيّة السوفييتيّ "ادوارد تشفر نادزه" عاد إلى موطنه الأصلي: جورجيا، "حيدر علييف" النائب الأوّل لرئيس الوزراء الاتحاد السوفييتيّ عاد إلى موطنه الأصليّ: أذربيجان، "جوهر دوداييف" قائد في سلاح الجو الاستراتيجيّ السوفييتيّ المرابط في فيلار في أستونيا عاد إلى الشيشان...

أوه! نعم، تذكّرت "جوهر دوداييف"، أحد أشرس خصوم يلتسن على الإطلاق، والذي وقف - حسبما أذكر - إلى جانب "جورباتشوف" ضد انقلاب "يلتسن"، ورفض قبل ذلك استخدام القوة ضد الحركات الاستقلاليّة في دول البلطيق، مما أدّى إلى نفيه إلى جروزني، مع عدد من قواته.

لم يكن قرار نفيه سيضع حداً ونهايةً للعداء الذي بينه وبين "يلتسن" بل على العكس من ذلك فاسم"جوهر دوداييف" - بالنسبة لي - يرتبط بالمرّة الثالثة التي شاهدت فيها "يلتسن" عن قرب كان ذلك في منتصف التسعينيات تقريباً في حفل أقامه "يلتسن" في الكرملين ودعا فيه كبار قادة الجيش الروسيّ إضافة إلى رجالات الدولة وبعض أصدقاء الكرملين من الروس والأجانب وذلك احتفاءً باغتيال المخابرات الروسيّة والجيش الروسي للزعيم الشيشاني "جوهر دوداييف".

كان حفلاً استثنائياً بما تحمله الكلمة من معنى كثيرون في تلك الليلة عرفوا الوجه الآخر لبوريس يلتسن فبعد الكأس الثالثة تحديداً ألقى "يلتسن" بكلّ البروتوكولات الرسميّة في أوّل سلّة قمامة صادفته وأعلن للجميع بصوت جهوريّ ألّا قيود في هذا الاحتفال.

أنهى كلماته ثم تخلص من سترته وحلّ ربطة عنقه ودسّ إصبعه في فمه وأطلق صافرة طويلة على إثرها دخلت فرقة استعراضية أوكرانية ترافقها فرقعة موسيقى غربية كُنت هناك واعترتني الدهشة مما يجري مرّت بضع دقائق سريعة قبل أن يستوعب الجميع ما يجري ثم راح الجميع يتصرف بعفويّة تامة.

كان راعي الحفل يسير بين الحاضرين يوّزع عليهم الضحكات والنكات الغبية ويعب من فم كلّ زجاجة يصادفها أمامه فجأة توقّف في وسط القاعة تحديداً أسفل ثريا عظيمة من الكريستال المطعم بالذهب امتقع وجهه وتبدّلت ملامحه ثم استدار حول نفسه ٩٠ درجة وسمّر عينيه الغاضبتين على وجهي!

يومها كنتُ أجلس وحيداً في يسار قاعة الاحتفالات خلف طاولة لم يحضر ثلاثة من ضيوفها كانت نظراته نارية ربما هي النظرات ذاتها التي أشاهدها الآن لا لا ليست كذلك كانت تلك النظرات تنضح بالحقد والكراهية.

ترك الضجيج والزحام وتقدم نحوي بخطواتٍ واسعة وفي طريقه التقط تفاحة خضراء من يد سكرتيرته الخاصّة قبل أن تفقد هذه الأخيرة وعيها بدقيقة واحدة عيناه تقدحان شرراً ملامحه اعتصرها الغضب شفتاه تتمتمان بشيء غاضب ارتبكتُ وضعت ملعقتي جانباً كل العيون سُمّرت عليّ غاصت القاعة في صمت مطبق لم يمزّقه سوى قرع كعب حذاء "يلتسن" على الأرضيّة الرخاميّة.

في تلك الثواني القليلة تمنيت من كل قلبي لو أنّ لي صديقاً يجلس إلى طاولتي حين وصل إلى أمام طاولتي هممتُ بالوقوف لكنه تجاوزني بخطوات واسعة إلى الطاولة التي خلفي وهو يزمجر بكلمات غاضبة لم ألتفت لكني سمعت صوته يتعالى بالشتائم ممزوجاً بصوت زجاج يتحطم.

الذهول والخوف شلّا كلّ قدرةٍ لي على التفكير وعندما استجمعت شجاعتي والتفتُّ إلى الخلف لم أشاهد سوى ظهور أفراد الحماية الرئاسيّة وهم يجرّون رجلاً في العقد السادس من العمر نحو الخارج على إثر ذلك تراجع "يلتسن" إلى الخلف إلى جواري وهو ما يزال يشتم ذلك الرجل ثم ألقى بالتفاحة الخضراء على طاولتي بلا مبالاةٍ وابتعد.

يومها وبعد أن هدأت الأمور وعاد الصخب إلى القاعة عرفتُ من أحد الضباط الروس الموجودين - وهو في غمرة الثمالة - أن ذلك الرجل

الذي تعرّض للضرب والشتم لم يكن سوى الدكتور "مكسيم غولايف" المسؤول عن رعاية جسد "لينين" منذ أيّام "بريجنيف".

أخبرني أيضاً أن ذلك العجوز (د. مكسيم) قد أفشى سرّاً كاد يودي بمستقبل "يلتسن" السياسيّ. هذا السرّ لم يكن سوى قرار سريّ اتخذه "يلتسن"، في اجتماع مغلق، حضره ثلاثةٌ من أشدّ المقرّبين إخلاصاً ليلتسن، إضافة إلى د. "مكسيم". ويقضي القرار بسرعة دفن رفاة لينين تحت أسوار الكرملين. وبرر "يلتسن" فعلته في نص القرار بأنّ الدولة الروسيّة لم تعد قادرةً على تحمل التكاليف الباهظة لرعاية جسد "لينين". وأكّد لي الضابط نفسه أن "يلتسن"، في ذلك الاجتماع، عزم أيضاً على نبش قبور المناضلين الأمميين الذين تم دفن رفاتهم في الساحة الحمراء، أمثال "ناظم حكمت"، و"جون ريد"، وغيرهما، وتسليم رفاتهم لسفارات بلدانهم.

في صباح اليوم التالي للاجتماع اندلعت المظاهرات في كبرى المدن الروسيّة جميعها تندد بالإجراءات التي يعتزم يلتسن اتخاذها وشنّت الصحافة الروسيّة ضده حملة شعواء اضطر بعدها بساعات قلائل إلى إنكار أي صلة له بالقرار المزعوم بل وظهر بوجه غاضب على شاشات التلفاز مخاطباً الشعب الروسيّ ويحذره من الانجرار وراء المؤامرة التي يدبرها أعداء روسيا الجديدة.

وبذلك استطاع "يلتسن" نزع فتيل الأزمة والخروج منها سالماً وتفرّغ للبحث عن عدوه الخفي ولأن د "مكسيم" كان الحلقة الأضعف في ذلك الاجتماع فقد جرى له ما جرى.

يبدو أن هذه الحادثة رفعت معنويات "يلتسن" تلك الليلة وأشبعت نهمه المخيف لإهانة من حوله على الأقلّ لبعض الوقت وحين ازدادت

حدّة نشوته اتّجه نحو الطاولة الكبيرة التي تتوسط القاعة ثم أمسك بطرف غطائها ونفض في وجوه الحاضرين كلّ ما عليها من طعام وشرابٍ وفاكهة على إثر ذلك علَت الضحكات والهمهمات في القاعة تجاهل "يلتسن" كلّ شيء واعتلى الطاولة بعد أن عبَّ طويلاً من إحدى الزجاجات ثم دار حول نفسه دورتين استعراضيتين وعبر الطاولة من طرفها إلى طرفها الآخر وفي طريقه ركل كلّ ما تبقّى عليها في وجوه الحاضرين الغارقين في الثمالة.

حين انتهى من ذلك دسّ إصبعيه في فمه وأطلق صافرةً طويلة ثم راح يتخلّص من ثيابه ويلقي بها قطعة قطعة في وجوه الحاضرين الذين ضجّوا بالصفير والتصفيق وهم يتسابقون لالتقاطها أبقى يلتسن على ملابسه الداخلية السفليّة فقط ثم راح يؤدّي عرضاً لكمال الأجسام لا يمتّ في الواقع إلى رياضة كمال الأجسام بأيّة صلة.

في زاويةٍ بعيدةٍ نوعاً ما عن الأضواء والضجيج كان يجلس العقيد "ديمتري أوليانوف" مخترع الصاروخ الموجّه الذي اغتيل به جوهر دوداييف) والذي كان من المفترض أن يكون نجم هذا الاحتفال وضيف الشرف إلا أنّه ومن خلفه كبار قادة الجيش الروسي فضلوا في تلك الليلة إبقاء الأضواء مسلّطة على "يلتسن" فقط.

كان العقيد أوليانوف يراقب ما يجري باهتمامٍ ويعبّ من زجاجة فودكا ٩٩ ويلعق كريمة وهميّة علقت بأصابع يده الضخمة.

بعد ذلك بسنواتٍ طويلة كنت جالساً على تلّة مامايف في مدينة ستالينجراد بمعية محررة أوزبكية كانت فيما مضى تعمل في وكالة الانباء السوفيتية "تاس" أخبرتني يومها أنها شاهدت العقيد "ديمتري

أوليانوف" تلك الليلة يستمني أسفل طاولته وأكّدت لي أن صديقها العامل في خدمات الكرملين أخبرها بعد ذلك بأسبوعين وهما على سرير الحب أن العقيد "ديمتري" اختبأ في تلك الليلة داخل أحد حمامات الكرملين وبعد أن انفض الاحتفال وغادر كلّ المدعوين تسلل خلسةً إلى قاعة الاحتفالات حيث كان "يلتسن" ما يزال جالساً فوق كرسيه الذهبي بثيابه الداخلية السفليّة يزمجر بغضب ويخدش الهواء بأظافره ثم راح يضحك بهستيرية وهو يصارع ثمالته وإغفاءة ثقيلة تحاول الإلقاء به إلى عالم اللاوعي ظل العقيد ديمتري يراقب كل ذلك من فرجة باب قاعة الاحتفالات وبين جنبات صدره مرجلٌ يغلي بجنون وحين انتهى من لعق أصابعه للمرة العشرين اتخذ قراره وأشهر عضوه عند باب القاعة ثم اندفع بخطواتٍ واسعة نحو الكرسيّ الذهبيّ حيث يجلس ذلك الجسد البض المكتنز الشبيه بجسد بطّة سمينة منتوفة الشعر وقبل أن يصل إليه بنصف مترٍ تقريباً تلقفته أيدي رجال الحماية الرئاسيّة الذين لم تفلح أيديهم في منع تلك اللطخة الدبقة من عبور فضاء نصف المتر لتستقر على وجه وصدر "يلتسن" الغارق في لجّة الثمالة واللاوعي.

بعد ذلك بأربعٍ وأربعين دقيقة صحا "يلتسن" من إغفاءته دار بعينين ثقيلتين ونصف مفتوحتين في المكان ثم التقط زجاجة نصف ممتلئة كانت مرميّة بين قدميه عبّ منها ما استطاع ثم رماها بعيداً كيفما اتفق لم يحاول أحد إخباره بما جرى خادمتاه الاستونيتان قدمتا له ثياباً نظيفة ومكويّة ارتداها بعد أن فرك وجهه وصدره مراراً ثم غادر إلى منزله.

قبل أن يسقط على سريره الأحمر الوثير بلحظات دار بعينيه في الغرفة الخافتة الإضاءة كانت الصور تتموج أمامه دس يده أسفل روبه الحريري

وتحسس صدره حيث شعر بوميض خافت لألم يعبر صدره من أقصاه إلى أقصاه.

في اليوم التالي وتحديداً في ساعات الصباح الأولى ألقى فريق من وحدة دلتا القبض على العقيد "ديمتري أوليانوف" ثم أحيل إلى محاكمة عسكريّة سريعة وغامضة ومن ثم أقلته طائرة "انطونوف" عسكريّة في رحلة خاصّة وسريّة إلى أقاصي سيبيريا ولم ينقض غروب ذلك اليوم - عن موسكو - إلا وهو نزيل من الفئة (أ في زنزانة انفراديّة لم يغادرها إلا في أواخر العام ٢٠٠٨".

أبي ما زال يصرخ وما زال يفرغ خزانة الكتب على الجدار "يلتسن" قطع نصف المسافة مدّ يده نحوي همَّ بقول شيء حشدت كلّ معرفتي باللغة الروسيّة تحفزّت حواسي لالتقاط كلماته نطق كلمات سريعة، أظن أن منها "سيباسيبا" شكراً أو "ساباكا" كلب لا أتذكّر تحديداً إنّما بدا لي صوته غريباً ولا يمت إلى صوته الحقيقي بأيّة صلة بل كان صوته شديد الشبه بصوت مذيعٍ مستعرب يعمل في القسم العربي بإذاعة موسكو - لا أتذكّر اسمه كلّ حروفه تخرج من بين أسنانه مضغوطة تحوي راء مجلجلة وسين حادة اخترقته الكتب التي يرميها أبي همَّ بأن يقول شيئاً آخر.

وفي لحظة دهشة نقّلت بصري بين الوجوه التي تحدّق بي من بين ثنايا مطبوعات "دار التقدم" وبين وجه أبي الغاضب وبين وجه "بوريس يلتسن" تسمّرت عيناي على وجه "يلتسن" شحذت كلّ حواسي مرّة أخرى لألتقط ما قد يتفوّه به شفتاه تتقلصان صوت صياح ديك ضجّ في المكان توقّف أبي عن رمي الكتب للحظات ثم التفت نحوي فبدا وكأنّه

صحا من إغفاءة طويلة في تلك اللحظة ولثوانٍ قليلة فقط التصقت عيناي بعيني أبي اللتين تشاركان قهوة الصباح لونها وحين بدأت أسافر معها إلى حقول البن وإلى رائحة التربة والعشب صحوت من إغفاءتي ثم انتزعتُ عينيَّ من أسر عينيه ودرت بهما باحثاً عن "يلتسن" وشفتيه المزمومتين لكنّي لم أجده على الرغم من أن المكان ما زال يعجّ برائحة عرقه البارد تلك الرائحة التي جعلتني أتذكّر رائحة ملابس "كارل ماركس" التي وصفها العقّاد في أحد كتبه بأنها نتنة وتنضح بالحموضة.

تسألني كيف عرف العقّاد ذلك؟!

لا أدري!

رمى أبي بآخر كتابٍ على الجدار وهو يشتم الشيوعيين والمدرسة والراديو زوجته تخرج من خلف فرجة بابها وتتقيأ في فضاء الصالة كلمات مغلّفة بشفقة مصطنعة يشوبها مكرٌ واضح:

- حرام عليك لا دخل للكتب هل نسيت أننا فقط في الأسبوع الماضي أعدنا طلاء الغرفة؟ أتلفت الطلاء يا رجل!

كم تمنيت حينها لو تموت تلك الأفعى المرقطة ويبعث الله بدلاً عنها لينين أو ماركس كنت على يقين حينها من أنّهما سيكونان - في حياة أخرى تمنح لهما - أكثر نفعاً لهذه البشريّة منها.

انتهى المشهد الذي انبثق أمام مخيلتي كنافذةٍ حوارية مباغتة أو كقطعة خشبٍ تحررت من أسر هيكل سفينة غارقة في قعر محيط ما وعاد الصمت الأزليّ إلى المكان.

# V

هكذا تبدأ الأفكار، وهكـذا تبـدأ المـشاهد؛ غـير مرتّبـة، وغـير ذات معنى؛ لكنها منطقية؛ نعم، تبدو لي منطقية، حتى وإن كانـت في الأصـل جزءاً من حكاية كبرى لم تُحْكَ بعد. ورغم ذلك يمكن اعتبارهـا رياضـة للذهن، في هـذا الوسـط المـسكون بالـصمت. وحتّـى وإن كانـت هـذه الرياضة تزيد من حيرتي، ومن شعوري بالوحدة والضياع، إلّا أنّني أجد نفسي مجبراً على انتظار حلولها، وعلى انتظار لحظاتها، كـيفما كـان وقعهـا على نفسي!

يقيناً ليس هنـاك شرّ مطلـق سـوى إبلـيس ولـيس هنـاك خـير مطلـق وحقيقة مطلقة سوى الله وجميع البشر ليسوا سوى خيـوط حريريّـة واهيـة تتقاذفها الأيام تارة هنا وتارة هناك.

فلربّما وجدت نفسك وعلى غير موعد في الزمان والمكان الخطأ هذا قد يفرض عليك نمطاً سلوكيّاً معيناً يمليه واقعك وقد ترغم على فعل الـشر وعلى القسوة وعلى التطبّع بهما بشكلٍ ينافي حقيقة جوهرك ويتعارض مع مكنون نفسك وعلى النقيض تماماً.

فهذا السجّان جزءٌ من سلسلةٍ طويلة من حكايا الخـير والـشرّ وحكايـا أخرى يغفلها جمع غفير من الناس إنّها حكايا المطحونين بين رحـى هـؤلاء وهؤلاء فلا هم كانوا من أهل الخير ولا هم كانوا من أهـل الـشر وإنّـما كانوا – كما قلت – في المكان والزمان الخطأ.

التصقت عيناي بوجه "أنس" الـذي بـدا لي في هـذه اللحظـة شـاحباً واجماً...

ثم ودونما حاجة التقطتُ وعاء الطعـام تفحـصّته شـاهدت وجهـي ينعكس متمّوجاً على قعره حركته مراراً في زوايا مختلفـة محـاولاً الحـصول على أفضل صورة لوجهي لكن جُلّ ما استطعت فهمـه مـن ذلـك الطيـف غير الواضح المنعكس على صفحة المعدن أن مظهري رثٌّ للغايـة وأنّي في أسوأ حالاتي البدنيّة والذهنيّة وأن زمناً ليس بقصير مرَّ عليّ منذ أن دخلت هذه الزنزانة أو بمعنى أدقّ منذ أن أتي بي إلى هنا.

هيئتي الحاليـة، في مجملهـا، تطـابق إلى حـدًّ كبـير الـصورة التـي رسـمتها لوجهي حينما كنت أقرأ تضاريسه في الظلام، مستخدماً أسلوب برايـل. وأنـا على يقينٍ من أنّها بعيدة كل البعد عن ملامحي الأصلية، التي لا أتذكّرها أبداً!

ذاكرتي في حدّ ذاتها لا أدري ماذا أصـابها فقـد ذوت تمامـاً وأصـبحت كورقة بيضاء فقط ومضاتٌ من خيالاتٍ واهنة عن حياتي السابقة تراودني بين الحين والآخر...

تلك المشاهد والومضات التي تباغتني حتّى وإن كانت لذيـذة بالنـسبة لي وحتّى وإن كانت تولد بداخلي أملاً واهناً بإمكانيـة اسـتعادة ذاكـرتي أو قد تساعدني في يوم ما على معرفة ما جرى لي ولماذا أنا هنا رغم كلّ ذلك لا أشعر بأيّ انجذابٍ عاطفيّ نحو هذه الومضات والمشاهد هي فقط مشاهد مفرغة من العاطفة والمشاعر تثير حيرتي أكثـر مـن أيّ شيء آخـر وتـرتبط بحدث - يحدث لي في هذه الزنزانة المقيتة - أو بكلمـة أو فكـرة أو اسـم يردُ أي منها في سياق مشهد أو ومضة.

بعضها مشاهد شاحبة غير واضحة تبدو وكأنّها نسخة سلبيّة من فيلم سينمائي قديم تمّ تجريده بكلّ قسوة من ألوانه وأصواته!

هل قلت هذا سابقاً؟!

حقيقةً لا أدري إن كنت أكرّر ما أقوله أم لا!!

لكنّي أعرف يقيناً أن إعصاراً عظيماً من الحرقة والفقد والخوف يسافر بداخلي بمنتهى الحرية يهدم كلّ هياكلي ويطمس كلّ شموس الوعي بداخلي ثم يغلق عليّ تابوت الذهان فأجدني فيه مشوّشاً مذعوراً أتشبّث بأيّ كلمة أو فكرة تخطر على بالي بل وربّما لجأت إلى تكرارها مراراً مخافة أن أفقدها ومخافة أن أنسى قولها فلم أعد أثق في ذاكرتي أبداً.

يبدو فعلاً أن الرطوبة قد قتلت كلّ شيءٍ داخلي فلم يبقَ لي ما أتشبث به أو ما قد يساعدني على الصمود هنا في الغالب تشكل الذكريات وقوداً ودافعاً للبقاء والصمود لكن في حالتي هذه صار هذا الوقود عامل إحباط إضافياً أو بالأصحّ جرعةً إضافيّة من الألم، تزيد معاناتي وألمي.

وجهت الضوء المنعكس نحو زوايا الزنزانة وجدرانها رحت أستطلع ما فيها ببطء وفجأة توقفت عند نقطة في الجدار في يمين باب الزنزانة بذلت قصارى جهدي لأركّز الضوء على تلك النقطة ودققت النظر فيها لم أصدق أبداً ما تشاهده عيناي.

تركتُ الوعاء يسقط من يدي، فتدحرج على أرضيّة الزنزانة، محدثاً ضجيجاً يضاهي صرخة انبهار. نهضت على أطراف أصابعي، متخطياً كل شعورٍ بالألم. مددت يدي المرتعشة برهبة نحو تلك النقطة. عيناي مشرعتان نحوها. قلبي يدقّ. مشاعري الذاوية دبّ فيها نبض واهن

للحياة. اقتربتُ أكثر. التصقتُ بالجدار كليّاً، وعيناي ما زالتا مسمرتين على النقطة ذاتها. بطرف سبابتي غير الواثقة، لمست تلك النقطة؛ نعم، لمستها. كانت حقيقية؛ نعم، حقيقية. للحظات وقفت جامداً، ملتصقاً بالجدار. تأكّدت من أن ما يجري ليس هلوسة بصريّة. تحررت من أسر المفاجأة. غادرت الجدار. وقفت أحدّق في النقطة ذاتها التي جذبتني؛ نعم، تحسستها بأطراف أناملي، كمن يتحسس تحفة ثمينة ونادرة أخذت من الجمال حظّها الأوفر.

خاطبت نفسي أو "أنس" لا أتذكر تحديداً:

- إنه مفتاح كهربائيّ أيعقل هذا!

بيدٍ مرتجفة تدفعها الأماني وتقيدها المخاوف ضغطتُ الزرّ دفعة واحدة...

غمر المكان ضوءٌ ساطع أفقدني توازني وأفقدني القدرة على الإبصار أحسست بألمٍ فظيع في عينيّ ورأسي أغلقت عينيّ وأمسكت برأسي ثم جلست على الأرض وحين تكيفت عيناي مع الضوء فتحتهما ببطءٍ فوجدت الزنزانة يغمرها ضوء غازيّ قويّ نهضت متعثّراً درت حول نفسي مذهولاً وغير مصدّقٍ شاهدت الزنزانة نعم شاهدتها وكأنّي أشاهدها للمرة الأولى شاهدت جدرانها التي تذرعها الحفر وخيوط الملوحة وأرضيتها المتهالكة وبابها الصدئ وبطانيتي الرثّة والدلو الحديديّ كان المكان أبشع مما تصورت.

لكن لماذا لم يخبرني ذلك الحارس أو السجّان عن وجود مصدرٍ للضوء رغم أنّه زارني مراتٍ عديدة وأنا أقبع في الظلام؟!

رغم فرحتي الكبيرة بالضوء والدفء والأنس الذي سيبعثه هذا المصباح على حياتي إلا أن هذا الضوء وضعني أمام الحقيقة المرّة التي لطالما حاولت جاهداً أن أتحاشاها أو بمعنى أدقّ أتحاشى التفكير فيها وهي أنني محجوزٌ في زنزانة ما في مكان وزمان مجهولين.

فلربّما كان للظلام الفضل الكبير في صمودي كل هذه الفترة في ظلّ هذه الظروف القاسية فالظلام يغمرني لساعاتٍ طويلة من اليوم يعقبه أوقاتٌ ضئيلة من الضوء هذا التعاقب الرتيب غدا رياضة لذهني ورياضة لخيالي الذي يحاول الانطلاق بكلّ جموحه ليعوض عن افتقار العقل والحواس إلى الدافع الاجتماعي والمعايشة اليوميّة مع الناس والأحداث وهكذا تكيّف بذلك ذهني وجسدي مع الوضع الجديد.

على أيّ حال كانت الزنزانة عالماً كبيراً وفسيحاً مترامي الأطراف غارقاً في بحر من الظلمة يتيح لي الإبحار فيه كيفما شئت وفي أي اتجاه دون أي حدود أو قيود أما الآن فالضوء اختصر هذا العالم الفسيح المترامي الأطراف إلى عدّة أمتارٍ تنهيها جدران صماء قاسية.

الآن أشعر بأنني أقف جامداً أمام لوحة جامدة مرسومة على جدار ما أحدّق فيها طول الوقت ولا أستطيع الفرار من تفاصيلها أبداً حتّى وإن أغمضت عينيّ.

لربّما كنت في نعمةٍ كبيرة لم أدرك قيمتها إلّا حين فقدتها وتغيرت الأوضاع نقّلت بصري نحو وجه "أنس" الباسم كعادته لقد تغيرت كينونته كلياً كان صديقاً لي يلهمني ويشاطرني ألمي وخوفي ويستمع إلى حكاياتي وآرائي وقد تدفعني الوحدة لأن ألعب معه (oxo وصار الآن

مجرّد حصوات سوداء ملقاة على الأرض لا أهميّة لها ولا تلفت الانتباه أياً كان الشكل الذي تشكله.

على وقع هذا الخاطر التقطتُ إحدى الحصوات (أظنّها عين "أنس" ورميت بها على غير مغزى نحو الدلو في زاوية الزنزانة...

اتبعتها بأخرى...

وأخرى...

وأخرى...

بعد كلّ حصاة أرميها كنت أسمع صوت قرقعة المعدن تارة وتارة أخرى صوت السائل الموجود في الدلو تناثرت الصراصير حول الدلو واكتظت بها أرضية وجدران وزوايا الزنزانة مذعورة من ذلك الطارئ الذي غير سكون حياتها ورتابتها.

أخيراً ذوى "أنس" وذوى ذلك الصوت الرتيب الذي خلفه تساقط الحصوات وعادت الزنزانة لتغرق في صمتٍ ثقيل ومقيت غدا وقعه على نفسي أكثر مقتاً وأكثر ثقلاً من ذي قبل بدأ صوت أنفاسي يتعالى ويتردد صداه بداخلي بل أشعر وكأنّي أغوص تحت الماء ببدلة غوص تضيق على جسدي أكثر وأكثر بل يخيل لي أنها تعتصرني صارعت عشرات الأيدي الملطّخة بالسخام والدم امتدت لتكتم أنفاسي انزويت في زاويتي مذعوراً اعتصرني الخوف أغمضت عيني مراراً صرخت مراراً صارعت تلك الأيدي وقاومتها لكنها كانت أقوى منّي وأقوى من كلّ محاولاتي اعتصرت حنجرتي فارت الرغوة في فمي ازداد توحشها وكتمت أنفاسي وقبل أن تخبو أنفاسي بثوانٍ غادرتني الأيدي الخانقة كأفاعٍ مذعورة

وتركتني في زاويتي مكوّماً مذعوراً أجاهد لالتقاط أنفاسي وحين فعلت هدأ كلّ شيءٍ وعاد الصمت والسكون إلى المكان.

يا إلهي لقد طال الليل بشكلٍ لم آلفه هنا من قبل!!!

يقيناً هذا شعور ولّده وجود المصباح الذي شكّل حدثاً جديداً سيغيّر حتماً توقيت ساعتي البيولوجيّة للفترة القادمة.

ظللت في زاويتي أحدّق في اللا شيء غيّرت من وضعيّة جلوسي مراتٍ ومرات نهضت ورحت أذرع الزنزانة جيئةً وذهاباً على غير حاجة.

وجدت نفسي أقف أمام المفتاح الكهربائي دارت عيناي في الفراغ مددت يدي وأطفأت المصباح وأشعلته أطفأته وأشعلته ثماني مرات متتالية الضوء يأتي وينحسر يأتي وينحسر لا أدري أيّ شعور اعتمل بداخلي هذا التتابع الرتيب للضوء والظلام أعاد إلى ذهني ذكرى قديمة أشعر بها تفور بداخلي وبالصور تطفو على صفحة ذهني إنّني الآن أسمع الأصوات وأشمّ الروائح نعم أنا أفعل هذا الآن.

كان ذلك في أحد الأيام لا أتذكّر متى في منزلٍ لا أتذكّره ولا أتذكّر أنّي رأيته فيما بعد أشعة الشمس تعبّر النوافذ والستائر البيضاء تعلن عن اقتراب وقت الغروب كنت في بهو المنزل أجلس على كرسي مرتفع وقدماي الصغيرتان تتأرجحان في الفراغ ترتديان حذاء رياضيّاً محلول الأربطة كان الحذاء أبيض اللون نعم كان كذلك وكنت أمسك بيدي رغيف خبز قاسياً محشوّاً بالجبن أقضم منه قضماتٍ كسولةً على الجدار المقابل لي صورة كبيرة لجمال عبد الناصر بإطارٍ خشبيّ مزخرف. أسفلها كرسيٌّ بحوافٍ كانت فيما مضى مذهبة وإلى يمينه منضدةٌ متوسطةٌ عليها

مصباحٌ مكتبيٌّ وساعة منبه وبعض القوارير الملوّنة فضاء البيت يعجّ برائحة الصابون ولا صوت فيه سوى حفيفٍ غير مفهوم وهمهمات خافتة وغير واضحة.

فجأةً فُتح باب المنزل على مصراعيه على عتبته ظهر رجلٌ ضخم رشقني بنظرةٍ سريعة ثم اندفع نحو الداخل كقطار مجنون تاركاً الباب من خلفه مفتوحاً انتزع سترته العسكريّة من على جسده المترهل المفعم بالشعر والعرق وألقى بها بعيداً كيفما اتفق ثم تابع طريقه ملقياً حذاءه بلا مبالاة في بهو المنزل.

ظهرتْ في البهو رشقتْه بنظرة سريعة ثم تبعته بخطواتها ونظراتها الغاضبة دلف المطبخ التقط إبريق الشاي ووضعه على الفرن ثم فتح أحد الأدراج ومن علبتين متجاورتين اغترف بيده بعض الشاي وبعض السكر وألقاهما في الإبريق هتفتْ بعصبيةٍ واضحة:

- ألا تعي ما يدور حولك!؟؟

من على منضدة قريبة التقط عبوة ماء معدنيّة وأفرغها في الإبريق عادت كلماتها الناريّة تدوي:

- أبناؤنا يضيعون من بين أيدينا ابنك الأكبر لا ندري أين اختفى والآخر أصبح يحمل بندقيّة ويرافق أولئك السكارى ليل نهار لم تكلّف نفسك عناء السؤال عنهم مجرّد السؤال يا رجل!!

على مؤخرته نفض يده من بقايا السكر والشاي والتقط علبة ثقاب حاول بأربعة أعوادٍ متتالية إشعال الفرن ولكن دون جدوى عاد صوتها متابعاً بحنق:

- لا غاز لا شيء في البيت سوى أنت وأنا وقوارير الخمرة وأكياس القمامة!!

استند بكفيه على الفرن وطأطأ رأسه مغمضاً عينيه فبدا وكأنّه يحاول التمسّك بحلم أو إغفاءة تحاول الفرار من بين جفنيه جاء صوتها مرّةً أخرى بالنبرة الحادّة الغاضبة المستفزة ذاتها:

- ابنك عاد أمس وآثار الدماء تملأ ثيابه ألن تسأله عما جرى؟!

امتقع وجهه بشدّةٍ ضرب إبريق الشاي بكفّه وأطاح به على الأرض بعنف قبل أن يصيح بغضبٍ جم وهو يلوّح بسبابته بغضب:

- أبناؤك أبناؤك يخيل إليّ وكأنهم مازالوا في الحضانة هذا القواد الذي تتحدثين عنه في الثلاثين في عمره كنت وحدي تعلمت وتزوجت وعملت وعرفت ما يجب عليّ فعله لم يقف إلى جواري أيّ ابن كلب فعلت كل شيء بمفردي!

امتقع وجهها وهي تردّ بغضب تشوبه الشماتة والاشمئزاز:

- وحدي وحدي يا رجل أوجعت رؤوسنا بهذه الكلمة التي ترددها منذ ثلاثين عاماً تريد أن تفرض على أبنائك وكل من حولك أن يعيشوا بالنمط ذاته الذي عشته قبل ثلاثين عاماً ألا تشعر بالخجل؟!

تقدّم منها وحدّق في عينيها مباشرةً قبل أن يصيح بصوت هادر وهو يشير بسبابته نحو البعيد بعصبيّة:

- إذن سأترك عملي ومشاغلي وأتفرغ لمطاردة أبنائك في الأزقّة والمواخير!

استدار إلى الخلف وخطا عدّة خطوات ثم استدار مرّةً أخرى وعاد نحوها ووقف أمامها وتابع قائلاً بغضب:

- أو أمسك ميكرفوناً وأمضي أمشّط الشوارع بحثاً عن ابنك الأكبر؟ هذا ما تريدينه أليس كذلك؟!

ردّت بصوتٍ عالٍ:

- هم أبناؤك أيضاً وعليك أن تتحمل مسؤولياتك كأبٍ معظم نهارك في الثكنة وكل ليلك تقضيه محدّقاً في ذلك السقف اللعين وأنت ترضع من قواريرك ولا تهتم أبداً لما يدور حولك وترمي بكل الحمل عليّ!

لوّح بكفه بغضب وغادر المطبخ نحو بهو المنزل وهو يصيح بضجر:

- قواريرك قواريرك أنا أحصل عليها مجاناً فكيف بك إذا كنت أشتريها؟ ماذا كنت ستفعلين؟ ستخرجين إلى الشارع لتصرخي في وجوه الناس بأن زوجك سكران؟ هه؟!

صمت لحظة قبل أن يتابع قائلاً باللهجة ذاتها:

- نعم إنني أتعاطاها كي أنساكم وأنسى العالم وكلّ وجع القلب والرأس الذي تصرّون على أن أتعاطاه معكم على مدار الساعة!

التقط إحدى القوارير الفارغة من على إحدى الطاولات وأشار نحوها بيدٍ مرتجفة وهو يقول بحدّة:

- لولا هذه القوارير لانفجر قلبي ورأسي منذ عصور.

أنهى عبارته وهو يلقي القارورة بلا مبالاة في أحد أركان المنزل على إيقاع كلماته الأخيرة ذوت ملامحها قبل أن تقول بمرارة واضحة:

- نحن نسبب لك وجع الرأس؟ لم أكن أعرف ذلك حسبت أننا نحمل عنك عبء المشاركة في هذه الحياة لكن للأسف كل هذا لا معنى له لديك!

سال طوفان أسود من عينيها خنقها لثوانٍ وبعد أن استعادت جزءاً من تماسكها تابعت بصوتٍ عالٍ امتزج بالبكاء:

- وأيُّ ملأ ذاك الذي سأخرج إليه؟ هل أنت أعمى؟ ألا ترى الشوارع الخالية والبيوت المهجورة؟!

ارتفعت وتيرة صوتها الممزوج بالبكاء وهي تقول:

- لا يوجد في هذا الحي سوانا ألم تسأل نفسك كيف نعيش؟ وماذا نأكل؟ وماذا نشرب؟ ألم تنتبه لذلك الخبز الجاف العطن الذي نأكله ليل نهار على جرعات الشاي؟!

دوى صوته قائلاً:

- الجميع يعاني لسنا وحدنا فقط من يعاني من أين آتي لك بالطعام؟ هل تريدين أن أخلقه لك؟!

دوى صوتها بغضب وهي تفرش كفيها نحوه:

- ولكنك تستطيع أن تأتي بقوارير الويسكي أليس كذلك؟ ألا يوجد متجرٌ يبيع الطعام؟ هه؟ أم أنّ هذا النوع من المتاجر لا يدخل في إطار اهتماماتك؟!

صمتت لثوان ثم تابعت بلهجة تحدٍّ واستفزاز:

- هل تعرف كم أتعرض للتحرش أثناء خروجي للبحث عن متجرٍ يبيع الطعام؟ ومع ذلك أصمت ولا أحاول أن أعكّر صفوك مع يقيني أنك لن تفعل شيئاً لأن هذا الأمر لا يعنيك إطلاقاً!

أدار لها ظهره وعقد ساعديه أمام صدره وهو يزفر بغضب فبدا كثورٍ هائج يستعد للانقضاض على حمل ساذج دفعته سذاجته للعبث بهدوء، ثورٌ يتعاطى الجنون منذ أن ظهر على وجه هذه البسيطة قال بحروف ضغط عليها بأسنانه:

هدى ماذا تريدين بالضبط؟ هل تريدين افتعال مشكلة فقط لتعلو أصواتنا ويسمعها الجميع؟!

ابتسمت بسخرية، ثم اتجهت بعصبيّة نحو نافذة ذات زجاج توزّعت في فضائه ثقوبٌ مستديرة سدت بأصابع من أكياس النايلون أزاحت بعصبية الستار ذا الثقوب الأربعة ثم فتحت النافذة بعنف وقالت بتقزز:

- أيّ جميع يا رجل؟ لا يوجد أحدٌ سوانا في هذا الحي رحل الجميع رحل الجميع!

ضغط على أسنانه أكثر وقال بغيظ:

- هدى ماذا تريدين الآن؟!

اقتربت منه ووقفت أمامه تحدق في عينيه بتحدٍّ ثمّ قالت بصوتٍ خفيض ينزُّ الغيظ من بين أحرفه:

- نرحل من هنا إلى أيّ مكان لم أعد أطيق البقاء في الظلام على وقع الجوع والخوف أريد أن أغادر!

حدّق في عينيها لحظاتٍ قبل أن يقول بغيظ وهو يلوّح بسبابته أمام وجهها:

- حسن لك ما تريدين احزمي أمتعتك ستكونين وحدك هناك أما أنا فسأعود إلى بيتي!

استدارت إلى الخلف مغادرة وهي تلوّح بكفها بسخرية ثم قالت بحنق:

- وحدي وحدي وماذا في ذلك؟ منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً وأنا وحدي هل تعتقد أنك كنت موجوداً في البيت أو في حياتنا؟ كنت مجرد قطعة من الأثاث يكتمل مظهر البيت بوجودها وفي أحسن الأحوال كنت ضيفاً صامتاً لا يقدّم ولا يؤخر ولا يعنيه شيء مما يحدث!

أنهت كلماتها وهي تصفق باب غرفتها خلفها بعنف وتركته في البهو يتلوّى بكرشه المترهّل غاضباً.

في غرفتها كان كلّ شيء قد تمّ الإعداد له مسبقاً وأصبحت حقيبة ثيابها مكتنزة بما تحتاجه أو بالأصحّ بما استطاعت حمله من متاع اتجهت نحو المرآة التي تحتلّ جزءاً كبيراً من جدار غرفتها وراحت تطوي جسدها بالأقمشة السوداء وترمق عبر المرآة الصورة القديمة التي تجمعها بزوجها والتي تتدلّى من الجدار المقابل منذ سنواتٍ طويلة.

إنّها المرّة الأولى التي تغادر فيها هذا المنزل وهي المرّة الأولى أيضاً التي تغادر فيها ولا تنوي العودة أشاحت ببصرها بعيداً عن الصورة أرادت في تلك اللحظة أن تطرد أي ذكرى قد تؤثّر سلباً على قرارها الحالي لفت رأسها بسرعةٍ بغطاء الرأس وفجأة وعلى غير موعد دوى في الخارج صوت إطلاق نار تجمدت لثوانٍ ارتعدت أطرافها الشاحبة كما ترتعد

أغصان شجرة جرداء هبّت عليها ريح خريفيّة ابتلعت ريقها ثم طوت خوفها جانباً وعادت لتنهي ما بدأت استدارت إلى الخلف مغادرة لكنه فتح الباب ووقف على عتبته متكئاً بكفيّه على جانبيه ثم قال بنبرةٍ حاول جاهداً أن تكون هادئة:

- يبدو أن هناك اشتباكات في الخارج يجب أن ننتظر لا نستطيع الخروج الآن.

استشفّت من إجابته إطلاقاً لسراحها على عكس ما كانت تعتقده أو تتوقعه أجابته بحنق ممزوج بالأسى وهي تجر حقيبة متاعها على الأرض بعصبية:

- لتبقى إن شئت أما أنا فسأغادر لم أعد أطيق البقاء لحظة واحدة.

أنهت عبارتها وهي تغادر غرفتها نحو بهو المنزل في تلك الثواني القليلة التي اتجهت فيها نحو باب غرفتها حيث كان يقف شيءٌ واهنٌ اعتمل بداخلها جعلها على يقين من أنّه سيمنعها من الخروج بل وربّما يضمها إلى صدره معتذراً مواسياً مؤنباً شبح ابتسامة راح يعد العدة ليطفو على شفتيها الغاضبتين لكن كل ذلك ذوى وتلاشى حين أفسح لها الطريق لتغادر وبعد أن تخطته بخطوتين فقط لملمت كلّ مزق كرامتها التي نثرتها على أقدام الوهم واتجهت بعصبيّة نحو باب المنزل فتحته وأغلقته خلفها بقوة.

كان الشارع مقفراً وصوت إطلاق نار متقطع يأتي من بعيد على وقع الشعور بالخوف تسمّرت قدماها على عتبة باب المنزل التي بدت لها هذه المرة غريبة موحشة بل وحزينة دارت بعينيها بقلق في الأنحاء التي تفور

بالوحشة والخراب يقيناً لم يكن الخوف وحده ما يكبل قدميها وإنّما أيضاً ذلك الأمل الضعيف الذي عاد يتّحرك بوهن في أعمق أعماق قلبها وجعلها تعتقد بأنه سيتبعها في اللحظة الأخيرة إنّها تشعر بنظراته تغمرها من مكان ما هو فقط يمارس معها لعبة عضّ الأصابع لكنه لن يتركها تمضي وحدها في هذا البحر المتلاطم من الفوضى والخوف طال انتظارها وطال...

ثارت ثائرة كرامتها فقبضت بعصبيّة على مقبض حقيبتها وجرّتها على الأرض الإسفلتيّة بصعوبة وعيناها الغارقتان في بحر من الدموع تدوران في الفراغ بقلق وخوف واضحين أصوات الرصاص تأتي من بعيد كفرقعات صغيرة ومع كلّ خطوة تخطوها كانت أصوات الرصاص تقترب وتزداد حدّة ووضوحاً كما عيناها كان جرح كرامتها ينزف بغزارة وربما أكثر نفضت كل شيء خلفها وشدت خطاها ونصبت قامتها بكبرياء مصطنع لكن مذاق الإهانة وخيبة الأمل كان مرّاً للغاية وأعظم من أن تتحمله فراحت تمسح دموعها بطرف ثوبها في مشهد يتناقض مع هالة الكبرياء التي حاولت أن تغادر بها.

من خلف الستار ذي الثقوب الأربعة كان يراقبها بتمعن وعيناه تتنقلان بين جسدها النحيل الملفع بالسواد وبين نوافذ المباني العالية المطلّة على الشارع شفتاه الضخمتان المتدليتان تتمتمان بكلمات خافتة...

ربما يخاف أن يطلّ قناص ما!

ربما يأمل أن يطلّ قناص ما!

لكن رصاصة طائشة ستنسيه أي عذاب للضمير قد ينتابه على مصيرها.

دوى صوت إطلاق نار كثيف نقل عينيه الجاحظتين نحو مصدر إطلاق النار ثم عاد بهما نحوها كانت تقف مسمرة ترتعد وقد سدّت أذنيها بكفيها مرّت لحظات ثم عادت تعبر الشارع بخطواتٍ واهنة تعتمد فيها على قدمها اليمنى بشكل لا يلاحظه إلّا من عرف عن إصابة ركبتها إثر سقوطها وهي تهم بالنزول من إحدى الحافلات في يوم الذكرى الأولى لزواجها.

أطلق زفرة طويلة وهو يرسل نظراته نحو الشارع.

غاب جسدها في نهاية الشارع شاهدت عيناه اللتان يحيط بهما تورّم يقلل من حجمهما الكبير تضيقان أكثر وهو يرسل نظراته الجبانة من خلف الستار شفته السفلى تتدلّى ويزداد حجمها وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة...

ربما هي تعاويذ!

ربّما هي نداءات واهنة لذلك الجسد النحيل الملفع بالسواد!

ربّما هو مواء روحه المفعمة بالجبن وهي تطوي نفسها في قعر ذاته تهنئه بحنان لنجاحه في التخلص من آخر القيود والالتزامات التي يعتقد أنها تثقل كاهله وتعكّر صفو وهدوء حياته.

على غير موعد صرصور عبر الأرض بسرعة ثم توقف نقل بصره إليه لثوان قبل أن يدوس عليه بقدمٍ حافية ومن ثم أطلقت أصابعه سراح الستار ليحجب نهاية الشارع التي ابتلعت قبل لحظات ذلك الجسد الراحل.

خطا بضع خطوات ثقيلة نحو الحمام ركل بابه ومن على عتبته أفرغ مثانته واقفاً وبعد أن انتهى رفع سحاب بنطاله كيفما اتفق ومسح كفيه على مؤخرته ثم اتجه بخطوات ثقيلة واحتلّ الكرسي أسفل صورة جمال عبد الناصر التقط قارورة ملوّنة من على المنضدة المجاورة للكرسي نزع فلينتها بأسنانه وبصقها بعيداً ثم عبَّ من فمها ما استطاع في تلك اللحظة تعالى في الخارج صوت إطلاق نار كثيف لم أسمع له مثيلاً من قبل وضع قارورته بين فخذيه وابتسم ابتسامة خافتة ثم عقد كفيه في حجره وسمّر عينيه على السقف على غير شيء وعلى غير معنى.

من على كرسيَي العالي كنت أراقب كل ذلك لم تبدر مني أيّ ردة فعل ولم يعرني أي منهم أي اهتمام وكأني لست موجوداً بينهم البتة.

لا أتذكر أنّي شاهدت ذلك الرجل وتلك المرأة قبلاً ولا أتذكر من يكونان ولا أتذكر أي حياة لي سابقة أو لاحقة في هذا المنزل كما أن ذلك الرجل يختلف كلياً عن أبي الذي رأيته في مناماتي السابقة أعتقد أنهما لم يكونا سوى محطة بائسة وعابرة في حياتي لم تتكرر بعد ذلك كما أذكر أن كل نظراتهما المرسلة نحوي كانت مشحونة بشحنة هائلة من الازدراء والاحتقار نعم كانت تزدريني وتحتقرني وفي أحسن الأحوال كانت تتجاهلني وتتجاهل وجودي.

لم أكن أعني لهما شيئاً ولم يكن وجودي معهما يحمل طابعاً أسرياً أو إنسانياً بل كنت في أعينهما مجرد ظل غير مفهوم يحتلّ إحدى الزوايا أو قطعة بالية ومهملة من أثاث المنزل يتجاهلان وجودها ويتحينان الفرصة للتخلص منها كنت حينها لا أفقه مكنون نفسيهما ولا أستطيع قراءة

معاني نظراتهما ولا أدري كيف أدركت إهمالهما وتجاهلهما لي فحاولت وعلى الرغم من حداثة سني أن أتدبر أموري بنفسي فعندما كان الجوع يقرصني كنت أتوجه إلى المطبخ وأبحث عما أسدّ به رمقي وأما حاجاتي الطبيعية فكنت ألبيها بنفسي نهاراً بكلّ يسر.

عدا كل ذلك كنت أمضي جُلّ نهاري جالساً على كرسي في البهو أطوح قدميّ في الفراغ دونما ملل وأراقب ما يجري وفي المساء كنت آوي إلى زاوية ضيقة في البهو بين الجدار وبين مكتبة خالية الرفوف في مخدعي ذاك توجد ستارة قديمة مغبرة كانت هي كل فراشي وكل لحافي.

في ذلك المخدع أو الجحر أتذكر أنّي كثيراً ما تبولت على نفسي في أمسيات باردة كثيرة وأخرى مظلمة وموحشة ولم يكن هذا الفعل على الرغم من شناعته في نظر الأبوين أو المربين يثير امتعاض أي منهما أو يلفت منهما أدنى انتباه فعجّ المكان وعجت ثيابي ومخدعي بالقمل وبرائحة البول المعتق أتذكر أيضاً أني ما دخلت حماماً قطّ للاغتسال في ذلك المنزل ولذلك امتلأ جسدي بالبثور والفطريات وصرت أحكّ بشرتي وفروة رأسي وعانتي وأعضائي الحميمة حتى تنزّ منها الدماء.

في المقابل لم أكن أشعر بأي انجذاب عاطفي نحوهما ولا أهتم عاطفيا بما يدور في ذلك المنزل كنت فقط أراقب تلك الكوميديا الهرائيّة أندهش أنصدم وأنصعق وفي كل مرّة يتعمق شرخ خبيث بداخلي ظل يخنق براءة طفولتي وأصابني في نهاية المطاف بالتبلّد بالبرود بالجمود بفوبيا غريبة تجعلني أشعر بخوف دائم من كل شيء ومن كل صوت أسمعه.

أتذكر أنهما كانا في شجار دائم كان يصل في ذروته إلى العراك بل أتذكّر أنّه في ظهيرة يوم ما وبعد شجار حاد أطبق على عنقها بيده الضخمة حتى فار الزبد من فمها ثم ثبتها من عنقها إلى الجدار وراح يصفعها مراراً وهي تصرخ تسعل وتحفر بشرة وجهه بأظافرها استمرّ ذلك طويلاً ذعرتُ غادرت كرسيي وفررت حبواً إلى مخدعي ومن هناك ظللت أرقب ما يجري عبر ثقب في خشب المكتبة حين انتهى من صفعها ترك جسدها يتهاوى على الأرض ظلّ يحدّق في جسدها المكوّم على الأرض للحظات كانت تسعل بشدة وكان يلهث بغضب ضغط على أسنانه ثم أمسك بقدمها وجرّها على أرضيّة البهو وهي تصرخ مذعورة طوّحت بذراعيها في الفراغ حاولت التمسك بأي شيء ولكن دون جدوى وحين وصل بها إلى عتبة باب الحمام ألقى بجسدها بعنف داخله وأغلق الباب بعنف وهو يشتم ويلعن تكورتُ مذعوراً في مخدعي أراقب عينيه تدوران في أنحاء البيت بغضب جمٍّ وأراقب تضاريس وجهه التي تنزّ بالدماء لا أدري لمَ خامرني اعتقاد حينها بأنه يبحث عني!

لا أتذكّر كيف انتهى أمر ذلك اليوم ولا أدري متى سمح لها بمغادرة الحمام ولا متى دلفت إلى غرفتها كما أنّي لم أشاهدهما في البيت لأيام بعد هذه الحادثة وذات صباح شاهدتها تغادر غرفتها بجسد هزيل مرتعد وبوجه ذاوٍ منكسر الملامح تعلوه الكدمات الزرقاء والخدوش.

أتذكّر أيضاً أنها في إحدى الليالي حطّمت زجاجة زرقاء على جمجمته بعد أن شتمها وبصق عليها وما زلت أتذكر كيف تطاير الزجاج في الهواء وكيف هوى جسده على الأرض بعنف دون حراك والدماء تسيل على

وجهه ورقبته يومها ظلّتْ للحظات تحدّق بمقت وازدراء في جسده المسجّى على الأرض ثم رفعت طرف ثوبها حتّى أعلى فخذيها النحليين وهي تتمتم بكلمات غاضبة ثم أنزلت سروالها الداخلي الأسود وركلته بقدمها جانباً ثم تبولت واقفة على وجهه المدمي وحين انتهت غادرت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها بعنف أطللت برأسي من خلف خشب المكتبة فشاهدت جسده ملقى على الأرض في شبه إغماءة وهو يغرغر ببولها.

أمّا في أيام السلم النادرة فكانا يشربان الخمرة طيلة اليوم وكانا أيضاً لا يجدان أدنى حرج من التعري أمامي وممارسة حياتهما اليومية في البيت والتنقل بين مرافقه وهما على تلك الحالة من العري.

في تلك الأيام النادرة الحدوث والتكرار استطعت أن أرى كل تفاصيل جسديهما فشاهدت آثار حروق قديمة وعميقة على لحم مؤخرتها الجافة وشاهدت نهديها الذابلين اللذين يشبهان بالونتين فارغتين شاهدتهما وهما يتأرجحان أثناء حركتها بين مرافق المنزل كما شاهدت أيضاً آثار رتق جراحي أسفل بطنها وشاهدت عظام حوضها الناتئة وتقاسيم عظام قفصها الصدري وعمودها الفقري...

كما شاهدت كرش ذلك الضخم وشعر عانته الكث وكيس خصيتيه المتدلي ووحمة كبيرة سوداء على فخذه الأيسر وبثوراً وتقرحات على سطح مؤخرته...

كانا أيضاً، في أيام السلم تلك، لا يجدان أدنى حرج في ممارسة الجنس في أي مكان أو زاوية في البيت متى شعرا برغبة في ذلك. ما زلت أتذكره

وهو يضاجعها على عتبة باب المطبخ، وعلى طاولة الطعام، وأسفل صورة جمال عبد الناصر، ووقوفاً أمام النافذة... كان يضاجعها كما يضاجع ثور ضخم عنزة عجفاء. لم تكن مضاجعة؛ نعم، لم تكن مضاجعة، بل كانت عراكاً شرساً، حرباً غير متكافئة، تنز الكراهية والدماء والشتائم من بين جنباتها.

كان الأمر جنونياً وحيوانياً وبوهيمياً إلى أقصى الحدود ومع أني لم أكن أفقه شيئاً مما يجري إلا أنه ظلّ عالقاً في ذاكرتي حتّى الآن.

أسدل الظلام أستاره لا أدري كم بقينا في الظلام لا أرى شيئاً أبداً لكنني كنت أسمع بين الحين والآخر أصوات أنفاس ذلك الضخم ونحنحاته وسعاله وأصوات الزجاجات تصطك ببعضها وأصوات السوائل تعبر بلعومه وأصوات غازاته تفرقع في وحشة المكان.

وفي نهاية المطاف وبعد طول انتظار أشعل المصباح المجاور له ونهض وخلع بنطاله بجوار الكرسي وبقي مرتدياً سرواله الداخلي ثم اتجه مترنحاً نحو الحمام سمعته يتبول ويفرغ غازاته ثم سمعته يفتح الحنفية الجافة قبل أن يضربها بكفه وهو يشتم ويلعن الكون بكلمات عجماء ملتوية الأحرف.

من على كرسيي شاهدتُ ظله على أرضية البهو المظلم يجثو ويتقيأ على أرضية الحمام سمعته ينتزع السوائل انتزاعاً مؤلماً من أحشائه وهو يصدر أصواتاً مرعبة ممزوجة بالبكاء والألم.

ذعرتُ نعم ذعرتُ فقد كان بكاؤه غريباً ومفزعاً لم أسمع له مثيلاً من قبل ولا من بعد جمدني الذعر في مكاني رفعت قدميّ وانزويت في قاع المقعد ثم جذبت غطاء طاولة مجاورة ولففت به جسدي.

على أرضية البهو المظلم شاهدت جسده يحجب ضوء مصباح الحمام ثم شاهدته يغادره ويتجه مترنحاً نحو كرسيه وقف أمامه لثوان رشقني بنظرة سريعة غير مبالية ثم مسح وجهه بساعده وألقى بجسده على الكرسي ثم مدَّ قدميه إلى الأمام وأسند رأسه إلى الخلف وعاد يعبّ من زجاجاته وهو يغمغم بلحن حزين غير مفهوم الكلمات وفجأة صمت لثوانٍ ثم مدّ يده بكسل نحو المفتاح الكهربائي وراح يطفئ المصباح ثم يشعله يطفئه ثم يشعله بتتابع رتيب استمرّ هكذا دونما ملل ودونما انزعاج ودون أن تشي ملامحه الجامدة بأيّ انطباع.

خُيّل لي أنّي أشاهده ومن خلفه الجدار والصورة يطفو لثوانٍ على صفحة بركة سوداء ثم تبتلعه ثم يعود للطفو وهكذا وفي نهاية ذلك المشوار العبثيّ ترك المصباح مضاء ثم تجشّأ وانحنى ليلتقط شيئاً ما من على الأرض مددت عنقي إلى الأعلى لأرى ما سيلتقط رأيته يسحب مسدسه من جراب بنطاله المرمي أسفل قدميه انزويت أكثر في مقعدي سحب مشط مسدسه ثم وضعه على الطاولة وعاد يعبّ من زجاجاته بجنون وبين لحظة وأخرى يرشقني بنظرات ناريّة ملتهبة.

لا أدري أيّ مشاعر انتابتني في تلك اللحظة لكنّي أتذكر أني على وقع الذعر الشديد تجاهلت لسع البعوض على جبهتي ولففت جسدي أكثر بغطاء الطاولة شاهدته يلقي بزجاجة فارغة بين قدميه كيفما اتفق ثم يلتقط المسدّس بيمناه ويضعه أسفل ذقنه تسمّرتْ عيناه على السقف وتسمّرت عيناي المندهشتان على وجهه المخطوف شاهدت شفتيه ترتجفان وشاهدت يده اليسرى ترتعش بشكل واضح كما أن عينيه تحولتا إلى خطين أفقيين يطوقهما تورّم غير مفهوم.

فجأة أغمض عينيه ثم ضغط على أسنانه كاتماً صرخة ألمٍ اندفعت من أعماقه ثم جذبت سبابته الزناد ودوى صوت الرصاصة بالعرض البطيء شاهدت فقاعة من اللهب تنبثق أسفل ذقنه دفعت رأسه إلى الخلف بعنف شاهدت لطخة كبيرة سوداء على الجدار وعلى صورة جمال عبد الناصر تهاوت يده الممسكة بالمسدس على المنضدة المجاورة للكرسي وانطفأ المصباح حينها وفي ذلك الظلام الرهيب وبكلّ ما أملك من قوّة أطلقت صرخة ذعر قويّة.

لم أعد أتذكّر بعد ذلك شيئاً كان ذلك هو آخر مشهد لي مع تلك العائلة وفي ذلك البيت...

---

لكني أتذكّر بعد ذلك طبيبة شابّة تدنو مني وتضع قطرات من سائل ما في أُذنيّ ثم تمسك يدي الصغيرة برفق وتصطحبني إلى غرفة صغيرة جدرانها من الزجاج السميك وتجلسني فيها على كرسي وتضع على رأسي سماعتين كبيرتين موصولتين بأجهزة داخل وخارج الغرفة ثم غادرت الغرفة وظلّت تراقبني من خلف جدار زجاجي سميك وأصابعها على لوحة التحكم كانت تشير لي بين الحين والآخر نحو أذنيها مع تكرار الجلسات فهمت مغزى إشاراتها.

في إحدى المرّات سمعت طنيناً خافتاً فهززت رأسي إيجاباً عاودت الطبيبة الكرّة بإشاراتها وعاودتُ هزّ رأسي بالإيجاب في تلك اللحظة فقط أشرق وجهها البلوريّ وابتسمت ابتسامة واسعة بلون الربيع ثم غادرت مكانها ودوّنتْ باسمة شيئاً ما في دفتر عريض موضوع على مكتب مجاور ثم دلفت إلى الغرفة الزجاجيّة وأخرجتني إلى غرفة أخرى وفيها تحدّثتْ إلى

شخص كان يرافقني  أتذكّر ملامح الطبيبة الشابّة جيداً  ولا أتذكّر ملامح وجه مرافقي  لكنّي أشعر بأنّه أبي  وأنّه ذاته الشخص الذي رأيته سابقاً في منامي عندما كان يصرخ ويرمي الكتب على الجدار  كما أنّي لا أتذكّر أي حديث دار بينهما  لأنّ المشاهد كانت بلا أصوات  على الرغم من أن الشفاه تتحرك والأبواب تُفتح وتُغلق والمكان يعجّ بالزوار.

وحدها الروائح غزت ذاكرتي بمعيّة تلك الصورة  روائح المطهرات الطبيّة  عطر الطبيبة الهادئ  رائحة التبغ التي تفوح من ثياب مرافقي.

أتذكّر أيضا أني كنت أزور تلك الطبيبة كثيراً  ربّما بصفة دورية  وفي كلّ مرة كنت أزورها  كانت تضع النقاط في أذني  وتقودني إلى الغرفة ذاتها وتجلسني على الكرسيّ ذاته  ومن خلف الزجاج السميك  كنت أشاهد ابتسامتها التي بلون الربيع.

عندما اندلعت الحرب  لا أتذكّر أي حرب  لكنّي أتذكر أني كنت أشاهد  وأنا في طريقي لجلسات العلاج  بيوتاً مهدّمة وأخرى محترقة وجثثاً ملقاة في الشوارع وفي مكبّات النفايات وعبّارات المياه  في تلك الفترة كنت في الجلسات الأخيرة من العلاج  ولم يتبقَّ في جدول الجلسات سوى ست فقط  لكن الطبيبة الشابّة التي تعالجني غادرت إلى موطنها  بعد أن تلقت تهديداً بالقتل  في تلك المرحلة كنت قد بدأت أسمع بعض الأصوات.

في موازاة ذلك كنت أخشى الظلام  لم أكن أخشاه فقط  بل كان يثير في نفسي الذعر الشديد  الذي قد يتصاعد ويتحول إلى حالة من حالات الاختناق  في تلك الفترة  وبعد أن فشلت كل محاولات قلع ذلك الخوف

الرهيب من داخلي أتذكّر أنّي كنت أنام بمعيّة مصباح بطاريّة مضاء يضعه بجوار سريريّ كل مساء رجل ضخم لا أتذكر ملامحه أبداً.

وحين بلغت الحرب ذروتها كانت الطائرات تأتي لتفرغ حمولتها على المدن والمعسكرات وكانت القذائف العمياء تنهال بحقد على المساكن والمتاجر كنت أسمع أصوات تلك الانفجارات الضخمة لم أكن أسمع صوت الانفجار كما يسمعه الآخرون بل كنت أسمعه كما لو أن أحدهم ينفخ في أذنيّ بقوّة وكنت أرى آثاره حين يحطّم زجاج النوافذ ويصفق الأبواب وحين يمتلئ هواء المنزل برائحة الغبار والكبريت.

أثناء الغارات وعمليات القصف العشوائيّ للأحياء السكنية كنت أحتمي أسفل سرير معدنيّ بمعيّة أطفالٍ لا أتذكر أعدادهم ولا وجوههم ولا حتّى أسماءهم لكنني أتذكر أننا وحال شعورنا بالخطر كنّا نتدافع عبر البهو والرواق كقطيع أرانب مذعور ثم ندلف إحدى الغرف المظلمة ونختبئ أسفل سرير ضخم ترتجف أجسادنا تحته وتنتفض على وقع كل انفجار.

أسفل السرير كنت أخرج مصباح البطاريّة وأشعله وأظلّ أدور بضوئه هنا وهناك في تلك الفترة أيضا لم يكن مصباح البطارية يفارق جيبي أبدا.

وفي ليلة باردة كنّا نجلس في البهو المضاء بمصباح زيت معلّق على أحد الجدران وجو المنزل معبأ بالدفء وبرائحة البصل ورائحة الكيروسين والأجساد كما قلت في تلك الفترة كنت أستطيع أن أسمع بصعوبة أصوات الانفجارات والرصاص وأصوات الطائرات حين تعبر سماء المنطقة على علوٍّ شاهق كنّا في تلك الليلة نتناول العشاء ما زلت أتذكّر ما

كان العشاء في تلك الليلة كان بيضاً مقليّاً وخبزاً وشرائح من البصل كانت الأيدي كثيرةً والأصوات متداخلة رغم ذلك سمعت صوت صفيرٍ حادّ اخترق ركود سمعي ورسم الدهشة على الوجوه الصغيرة وقبل أن نستوعب الأمر دوى انفجارٌ رهيب تطاير على إثره كلّ شيء فوق بعضه البعض وحلّ الظلام.

مصباح الزيت سقط على الأرض وتحطم واشتعل زيته أنا وجميع من كان معي على المائدة تبعثرت أجسادنا على الأرض واختلطت بالتراب والأثاث كنت ملقىً أسفل صوفة كبيرة لم أستوعب ما جرى على وقع ألسنة اللهب المتراقصة وعلى بُعد ذراعين مني شاهدت وجهاً معفّراً بالغبار جاحظ العينين مفتوح الفم يحدّق نحوي بجمود حاولت أن أفتح فمي لأقول شيئاً ولكن دون جدوى في تلك اللحظة هوى جزء من الجدار الداخلي وأطفأ ألسنة اللهب وعمّ الظلام حاولت جاهداً أن أُخرج مصباح البطاريّة من جيب بنطالي ولكن دون جدوى فالصوفة كانت تضغط على الجزء الأسفل من جسدي وتقيّد حركتي كليّاً سرى وميضٌ بارد بداخلي دارت عيناي في الظلام برعب اضطربت أنفاسي شعرت بأصابع شيطانية تقبض على عنقي وتكتم أنفاسي استجمعت كل قواي وأنفاسي وأطلقت صرخة ذعرٍ رهيبة.

**نفضت كلّ شيءٍ جانباً**، واتجهت نحو ركن الزنزانة رحت أفرغ مثانتي وأنا أحدّق في الجدار المتهالك اقتربت من باب الزنزانة بدأت في تفحّصه كان باباً فولاذيّاً مطلياً بالدهان الأزرق الفاتح تفحّصت مفاصله وجدتها صدئة وعليها بعض الزيت دنوت من الكوّة أسفل الباب مررت

أصابعي على حوافها فوجدتها خشنة ومسننة تكسوها طبقة طريّة من السخّام الأسود مما يجعلني أجزم بأنها حديثة العهد صنعها أحدهم بلهب الأكسجين.

عدت إلى زاويتي أجر قدميّ جرّاً لم أجد مفرّاً من العودة للتحديق في اللاشيء وأفكاري تضطرم على نحوٍ لم آلفه من قبل.

وبدأت أرتّب أفكاري نعم بدأت أرتّبها كما تُرتّب قضيّة منطقيّة متسلسلة...

جرت العادة أن تصبغ جدران وأبواب ونوافذ السجون باللون الرصاصيّ أو الأخضر أو الزيتونيّ حقيقةٌ لا أدري لمَ إنما يبدو الأمر وكأنّه عرفٌ أو نظامٌ متبع وهذا يعني أنّي لستُ في زنزانة خاضعة لسلطة الدولة كذلك مفاصل الباب الصدئة تعني أن هذه الزنزانة ظلّت مهجورةً لزمنٍ طويل وأعيد معالجة مفاصل بابها بالزيت كذلك صناعة الكوّة أسفل الباب بهذه الطريقة يعني الشيء ذاته.

نقلت عينيّ نحو المصباح المضاء ومفتاح الكهرباء اتسعت عيناي بذهولٍ وسرت قشعريرة خوفٍ رهيبة في جسدي.

في السجون النظاميّة يتمّ التحكم بالكهرباء مركزيّاً من غرفة تحكّم تتبع إدارة السجن ولا توجد أي مفاتيح أو قوابس كهربائيّة في الزنزانات لأسبابٍ عدّة تتعلّق بأمن وسلامة السجناء.

هذا لا يعني سوى شيءٍ واحد:

أنّي محتجز مختطف هنا!

لماذا؟!

ما السبب؟!

انفجر بركانٌ غاضبٌ بداخلي صرخت كالمجانين ركلت الباب ركلت كل إنش في الجدران والأرض والفراغ درت حول نفسي ملوّحاً بذراعي صفعت الهواء ضربت المجهول وفي نهاية المطاف وجدتني أقف لاهثاً وسط الزنزانة رفعت رأسي نحو السقف وصرخت صرخة انتزعتها من أعماقي:

- افتحوا البااااااااااااااااااااااااااب!

# VI

هدوء...

فتحت عينيّ عصف بي الدوار اقتربت منّي الجدران ثم ابتعدت تهاوى السقف انحدرت الأرضيّة انحداراً حاداً تشنّجت أطرافي حاولت مذعوراً التشبّث بأيّ شيء تأوّهت كثيراً وأغمضت عينيّ حتّى هدأ كلّ شيء.

حين فتحت عينيّ مرّةً أخرى وجدت نفسي وعلى غير عادةٍ ملقىً على وجهي وسط الزنزانة اعتدلت جالساً بحثتُ بخوفٍ في المكان عن مجهولٍ قد ينقضّ عليَّ في أيّ لحظة مرّتْ لحظات من الحيرة شعرت بعدها بصداعٍ شديدٍ يطوق رأسي وبالآلام مبرّحة تستعر في قدمي.

ما الذي حدث؟!

خلال ثوانٍ قليلة استعاد ذهني كلّ الأحداث الماضية. وخلالها أيضا سافرت عيناي نحو بقع الدم المطبوعة على باب الزنزانة وعلى الجدران والأرضية نفضت كل شيء جانباً ثم رفعت قدميّ ورحت أتفحّص جروحها الغائرة حبوت نحو زاويتي ثمّ أخذت وعاء الماء وأفرغت جزءاً منه في فمي وعلى وجهي وصدري مسحت فمي بكم قميصي وعدت مرّة أخرى أتفحّص جروح قدمي.

لم تكن جروحاً عاديّة بل كانت غائرة وما زالت تنزف غسلتها بالماء ثم مزّقت قميصي وصنعت منه شرائط طويلة ضمّدت بها جروحي.

في تلـك اللحظـة كنـت أدرك تمامـاً أن الجـروح الملتهبـة في ظـروفٍ متوحّشةٍ كهذه هي أقصر الطرق إلى القبر.

بعد أن انتهيت أسندت ظهري إلى الجدار وعـدت أجـول بنـاظري في صمت الزنزانة على غير معنىً.

فجأة!

لمحت بقعةً بيضاء بحجم قطعةٍ نقديّـةٍ عـلى الجـدار المقابـل ظهـرت أسفل بقعةٍ تآكلت فيها طبقة الدهان.

تقدّمت نحوها ببطءٍ حككتها بظفري اقتلعتها فتناثر غبارها الأبيض على الأرض أدركت أنّي أقـف أمـام طبقـة مـن الجـبس عـاودت الكـرّة فتساقطت قطع الجبس على الأرض بسرعة.

لا أدري ما الذي يجول بخاطري الآن!!

وأنا أزيل بأظافري هذه الطبقة المتهالكة من الجبس أكوام مـن الجـبس تتكدّس بسرعة على الأرض الغبار الأبيض يفور في فضاء الزنزانة ويغطّي وجهي وجسدي كثيراً ما سعلت وكثيراً ما بصقت ما تسرّب إلى فمي مـن ذلك الغبار.

على الرّغم من حالة الضعف التي كنت فيها لا أدري من أيـن حـصلت على هذا الكم الهائل من الطاقة!

ربما هو بريق الأمل الذي بدأ يلوح لي بالخلاص وربـما هـي الرغبـة في الخلاص من هذا السجن المقيت!!

أشـعر بأنّـه قـد قُـضِي عـليّ في هـذا الـسجن فالـذبول يغـزو أفكـاري وعواطفي والبرودة والخمول ينشبان مخالبهما في جسدي وفي ذاتي.

الموت يقترب منّي يوماً إثر يوم أسمع وقع خطواته الرهيبة يتردد صداه بداخلي بإيقاعٍ مؤلمٍ ومزعج إنه يقترب ويقترب ولا أجد سبيلاً لإيقاف تقدّمه المرعب.

في الأخير يظلّ الأمر سيّان بالنسبة لي فالموت نتيجةٌ حتميّةٌ لبقائي هنا وكلّ الخيارات التي تنتظرني تحمل في نهايتها النتيجة ذاتها...

إمّا أن أموت بالالتهاب...

وإمّا أن أموت تحت وطأة الخمول وسوء التغذية...

وإمّا أن أموت على يد من قام باحتجازي هنا لأيّ سببٍ قد يطرأ على مخيّلته فيقرر إنهاء هذا الالتزام المقيت برعاية شخصٍ غير مرغوب فيه يقبع في زنزانة...

على أيّ حال لا تعدو جميع هذه الخيارات عن كونها إنذاراً مؤجلاً بموت محقّق.

إذن لا بد أن أبحث عن مخرج لي من هذا المأزق أنا في سباق مجنون مع الزمن أحد تلك الاحتمالات المتوحشة المنذرة بالموت يقترب منّي بسرعة إنّه الالتهاب الذي بدأ يقضم أطرافي السفليّة وصرت أشعر بمخالبه تمتدّ إلى بقيّة أجزاء جسدي.

ازدادت وتيرة لهاثي وأنا أنتزع قطع الجبس وأرمي بها وسط الزنزانة.

أكوام الجبس تزداد ارتفاعاً. والبقعة الخالية على الجدار تزداد اتساعاً، وبعد عمل مضن، استمرّ لوقتٍ ليس بقصير، وقفت ألهث، وأنا أحدّق في جدار من الخرسانة المسلّحة، كان يختفي خلف طبقة الجبس. تفحّصته، ونقرت عليه عدة نقراتٍ، في أماكن مختلفة. أدركت أنّي أقف

أمام كتلةٍ صماء، وقويّة، من الإسمنت المسلّح، وقد يكون سمكها كبيراً للغاية!

ألصقت أذني بالجدار وأعدت النقر عليه في أكثر من مكان ولكن دون جدوى فالصوت المكتوم ذاته أسمعه في كل مكان نقرت عليه.

وقفت أمام الجدار العاتي مستسلماً مهزوماً محطماً مقهوراً أحدّق في فضائه الرماديّ بوجوم.

لكنّ بركاناً خفياً يغلي بداخلي نعم إنه يستعر بداخلي ويحشد كل شياطينه ثم انفجر نعم انفجر بداخلي فوجدت نفسي دونما شعور أصرخ أشتم ألعن وأنا أضرب الجدار والفراغ وكل طيف أو فكرة زارتني في تلك اللحظة.

وفي الأخير بصقني بركاني العاتي في قعر الزنزانة باكياً والدموع تشقّ طريقاً قسريّاً على تضاريس وجهي المعفّر بالغبار الأبيض.

لملمت عجزي وانكساري وزحفت نحو كومة الجبس جلست عليها وأسندت ظهري للجدار في تلك اللحظة لم أكن أرغب في فعل شيء أيّ شيء فكلّ ما حولي بدا سامجاً غبياً وعبثيّ التكرار.

نعم كلّ شيء جلوسي قيامي تنفسي وجودي هنا أصواتي حتّى دقات قلبي كلّها تكرارات هرائيّة لحدثٍ واحد لن تغير أي ردّة فعل لي تجاهها أي شيء من رتابتها بل إني أبدو كمعتوهٍ يحاول تغيير حركة عقارب ساعة حائطيّة باستخدام الإيحاء.

نفضت كل شيء جانباً وأفسحت المجال لذهني كي يغرق في مستنقع دبقٍ من الشرود والاستسلام.

فجأةً سمعت صوت ضرب عنيف على الكوّة المعدنيّة أسفل الباب تلاه صوت السجان أو الحارس أو أيّاً كانت صفته أو اسمه يهتف:

- الوعاء الفارغ يا ابن الفاعلة الوعاء الفارغ يا ابن الفاعلة!...

سرت على ركبتيّ نحو الباب ودنوت من الكوّة المفتوحة ثم دفعت بالأواني الفارغة وانتظرت لحظات قبل أن يدفع لي السجان بالأواني المملوءة بالطعام والماء دنوت محاولاً إلقاء نظرة على وجه سجّاني لكنّي لم ألمح سوى ساعديّه وقدميّه وحذائه كلُّ شكوكي واستنتاجاتي كانت في محلها فقد كان لباس السجّان مدنياً ولا يبدو أن هيئته عسكريّة إطلاقاً.

أغلق السجّان الكوّة الحديديّة فألصقت أذني بالباب وأصخت السمع سمعت صوت خطواتٍ تبتعد ثم ساد الصمت زحفتُ على مؤخرتي وأنا أحمل إناءي الماء والطعام جلست في زاويتي أمضغ بشرود وأشرب الماء بشرود أكثر.

شيءٌ غريب يعتمل بداخلي لا أدري ما هو أدرك بحدس عليل أن ذهني يلامس الآن قضيّة منطقيّة مكتملة الأركان ويحاول الإمساك بها ومعالجتها والخروج بنتيجةٍ ما.

لكنّه كلّما أمسك بأطرافها أفلتت من بين أصابعه ليبقى ذهني وعقلي مشغولين بشيءٍ غامض لا أدرك ما هو!

مرَّ عليَّ وقت طويل وأنا ما أزال أحدّق بشرود في إناء الطعام الفارغ صرصور معفّر بالبياض يقترب من الوعاء ثم يداعب بأطرافه الأماميّة بعض الفتات الملقّى على الأرض ثم يغادر على غير عادته تركت الشرود جانباً وتتبعته بنظراتي حتّى اختفى وراء كومة الجبس وما هي إلّا لحظات

حتى عاد الصرصور ذاته يتبعه عدد من الصراصير لم تتعّفر أجسادها بغبار الجبس.

ظللت جامداً أراقب حركة الصراصير التي انقضت على وليمتها وبعد أن فرغت منها غادرت واختفت وراء كومة الجبس شيءٌ غريب انتزعني من جمودي ووجدت نفسي أحبو متجهاً نحو كومة الجبس دنوت أتفحّص المكان الذي اختفت فيه الصراصير وجدت أسفل الجدار فتحة بحجم قطعة نقدية صغيرة.

جلست على الأرض وملايين الأفكار غير المرتبة تضرب جنبات جمجمتي درت بعينيّ في المكان على غير معنى رفعت سبابتي إلى شفتي ورحت أُسكتُ ضجيجاً وهمياً وخرافياً ملأ فضاء الزنزانة وملأ رأسي وبعد أن هدأ كلّ شيء نعم هكذا خُيّل لي كلّ شيء هدأ ولفه صمت ثقيل عدت مرّةً أخرى ودنوت من الفتحة أسفل الجدار للحظات ثمّ اعتدلت جالساً.

آليّة التفكير لديَّ اعتراها الذبول والصدأ على نحو لا يمكن تجاهله فأطرافي وملامحي تضطرب وتتقلص بشكلٍ غير طبيعي وأعرف يقيناً أن هذه أعراض مخاضٍ عسير لذهن صدئة وربما معطلة تحاول العودة إلى عملها ووظيفتها الأساسيّة والطبيعيّة.

أغمضت عينيّ للحظات واستجمعت أنفاسي وحشدت ما توفّر لي من طاقةٍ ذهنيّة وبعد دقائق من الصمت والاستغراق انسابت الأفكار أمامي نعم انسابت الأفكار أمامي كمتسلسلةٍ منطقيّة من الأفكار والأحداث.

إن خروج ودخول الصراصير على هذا النحو وكذا أجسادها التي لم تتعفّر بغبار الجبس دليل قاطع على أنّها استطاعت النفاذ إلى الجهة الأخرى من الزنزانة وأنّها تدخل وتخرج متى شاءت دون أن تواجه أي عوائق.

لم أنتظر أيّ شيء آخر اتسعت عيناي على آخرهما وجذوة الأمل تستعر بداخلهما لففت إصبعي بقطعة قماش ودسستها في الفتحة وبدأت في توسيعها تهاوت الطبقة الجبسيّة بسرعة تبعت مسار جحر الصراصير عبرها مقتلعاً قطع الجبس الواحدة تلو الأخرى كان الجبس ليناً رطباً على غير عادته وهذا يعني يقيناً أن هناك مصدراً لهذه الرطوبة مصدراً قريباً جداً وصلتُ إلى الطبقة الإسمنتيّة وجدتها رطبة ومتآكلة بدأت في إزالة شظايا الإسمنت ببطءٍ وبصعوبة العمل صعبٌ وممل إلّا أنّه في الحقيقة يعدُّ إنجازاً كبيراً لي في ظلّ الظروف الراهنة وفي ظلّ حالتي النفسيّة المزرية.

انهمكت كثيراً في العمل ولا أدري كم مرَّ عليَّ من الوقت وأنا أقتلع بأظافري شظايا الاسمنت وحبّات الحصى وفي لحظة ما شعرت بيدي ترتجفان وبالخدر يسري في أصابعي التي جرحتها أكثر من مرّة توقّفت عن العمل للحظات وحين حاولت أن أعود إلى العمل نبت في أطرافي وهنٌ مريع كنت متعباً؛ نعم كنت متعباً للغاية ولم أعد أقوى حتى على تحريك جفنيَ.

كالمسحور كالنائم كالمريض كالجريح كالميت خطوتُ خطواتٍ ثقيلة ومتعبة نحو زاويتي وتركتُ جسدي يسقط سقوطاً حرّاً ليستقر على بقايا بطانيتي وسط سحابةٍ من الغبار الأبيض.

# VII

فتحت عينيّ ببطءٍ صفعني ضوء المصباح بقوّة شعرت بوخزاتٍ متفرّقة على وجهي وصدري انتفضت أصيح مذعوراً وأنا أنفض وهماً علق بوجهي وشعري ثم انزويت نحو الجدار والقشعريرة تضرب جسدي تغلبت بصعوبة على صفعات الضوء شاهدت الصراصير تغادر جسدي وأطرافي وأرضيّة الزنزانة ثم اختفت خلف أكداس الجبس استجمعتُ قواي استوعبتُ ما يجري عيناي مسمرتان على الأرض والغبار على غير انطباع وفي لحظة الهدوء تلك انتبهت إلى شيءٍ جديد يفور بداخلي ويتصاعد غليانه إلى قعر جمجمتي شيءٌ جديد لا عهد لي به هنا جعل ذهني متّقداً صافياً كأنّه يطفو فوق سحابةٍ وثيرةٍ من الكافيين.

إنني أفكر!!

نعم إنّني أفكر؟ هذه المرّة بذهنٍ صافٍ دون أن أواجه الصعوبة التي واجهتها في المرّات السابقة.

أعداد الصراصير تزايدت على نحوٍ ملحوظ يبدو أنّني أقترب من الخلاص إذن أنا أسير في الاتجاه الصحيح نعم نعم أنا أفعل ذلك!

قد يبعث الله لك رسالة أو دليلاً للخلاص عبر ساعي بريد قد لا يلفت نظرك أو اهتمامك لكن حينما تستخدم عقلك وتبحث عنه ستعرف كم كنت غبيّاً حين عميت عيناك وبصيرتك عن رؤية ذلك الساعي الصبور الذي يقف أمامك طوال الوقت ومنذ اللحظات الأولى لمحنتك بل

وغفلت عن رؤية الرسالة التي يحملها بيده بصبر لا ينفد كلّ ما يتوجب عليك فعله فقط أن تلتفت إليه وتمدّ يدك بصيرتك عقلك وتلتقط الرسالة قد تكون هذه الرسالة بمعيّة غراب أو هدهد أو ربما بمعيّة صرصور أو أيّ شيء آخر لا يهمُّ الشكل أبداً ما يهمُّ هي الرسالة التي يحملها والتي تحمل في طيّاتها دليلاً للخلاص.

قد أبدو مهرطقاً مهلوساً مجنوناً ولا ضير في ذلك على الأقلّ في الوقت الحالي.

فما الذي يمنعني من استنفاد كلّ الوسائل وتجربة كلّ الاحتمالات؟!

حتّى تلك التي قد تبتعد عن الواقع وتلامس الخرافة...

حتماً لا شيء!

نعم لا شيء إطلاقاً!

فقد قيل قديماً إنّ الغريق يتعلق بقشّة مع علمه أنّ القشّة لا يمكن أن تنقذ حياته لكنّه جنون الاحتمالات نعم إنّه جنون الاحتمالات الذي يضرب العقل وهو في أشدّ حالاته ضعفاً ويسلبه القدرة على التفكير والتقرير ولن أدهش أبداً إن وجدت ذلك الغريق يمدّ يده إلى يعسوب طائر أو بعوضة مستغيثاً يأملُ أن تلتقطه من براثن غرقه بعد أن اختارت القشّة اعتزال دور المنقذ الفاشل.

دارت عيناي المتعبتان في الفراغ قبل أن ألتقط ملعقة الطعام وأتّجه نحو الجدار قبضت على الملعقة بقوّة وكأنّي أحاول بذلك ضخّ قوّة خرافيّة فيها قد تساعدني على إنجاز ما أقوم به أو ربما أردت أن أقول لها إنّي أضع ثقتي فيها ويتوجب عليها أن تكون عند حسن ظنّي بها.

دنوت من الفتحة وبدأت في توسيعها واقتلاع حبّات الحصى باستخدام الملعقة العمل شاقٌ ومؤلم لا جدال في ذلك لكن العمل بالملعقة أفضل بكثير من العمل بأصابعي وأظافري مع ذلك وبعد أن جرحت نفسي مرتين وجدتُني مرغماً على لفّ كفّي بقطعة من قماش قميصي وعُدْتُ لمواصلة العمل.

بعد طول كدّ وعناء بدت لي طبقة جبسيّة في العمق ظللت أحدّق فيها للحظات غير مصدّق لا أدري أيّ مشاعر انتابتني لحظتها على غير مغزىً نقّلت بصري نحو الباب ونحو الكوّة ونحو المصباح الكهربائي تسرّب الاضطراب والقلق إلى كياني بل أظن أنّي وقعت بين الخوف والرجاء جمعت أنفاسي واستجمعت قواي واتخذت قراري مددت يدي المرتعشة ثم رحت أضرب الطبقة الجبسيّة برأس الملعقة بإصرار ضربةً تلو أخرى حتى تهاوت ونفذت الملعقة إلى الفراغ.

تجمّدت مذهولاً لثوانٍ ثم أعدت دفع الملعقة مرتين فتأكّد لي أنها نفذت إلى الفراغ فلا شيء يعترض طريقها في الجهة الأخرى وعلى الرغم من صغر الفتحة أحسست بتيّار هوائي بارد يدخل الزنزانة بقوّة أسرعت في إزاحة بقايا الاسمنت والجبس المكوّمة في محيط الفتحة ثم رحت أملأ صدري بالهواء النقيّ للمرّة الأولى منذ فترة طويلة.

سرى خدرٌ لذيذ في أوصالي لم أستطع أن أمنع نفسي من الاستلقاء بجوار الفتحة شبه غائب عن الوعي وعيناي تسافران في السقف وفي الزوايا على غير انطباع بدوت وكأني أرزح تحت وطأة أشدّ الإمفيتامينات شراسة وتأثيراً.

الهواء يدخل الزنزانة بقوّة غبار الجبس الأبيض يتطاير ويملأ فضاء الزنزانة شعرت ببرودة أخرى لذيذةٍ تضرب وجهي وتحتلّ مكاناً واسعاً في صدري إنّها بالتأكيد برودةٌ تختلف عن البرودة التي عاشرتها هنا في هذه الزنزانة منذ أمدٍ طويل.

أغمضت عينيّ وبدأت أحلّق بخيالي بحريّة للمرّة الأولى منذ أن تمّ الزجّ بي بين هذه الجدران المتوحّشة التي شكّلت سجناً لي ولخيالي فبدا خيالي فيها كعصفورٍ قليل الحيلة حُبس في عمق هذه الزنزانة الكئيبة فتوقّف عن التحليق والغناء وفضّل في نهاية المطاف الانزواء والاستسلام لأشباح وخيالات الكآبة.

أنا وخيالي كلانا أصبح مصيره مرتبطاً بمصير الآخر.

لا لا!!...

الصحيح أنّه ينتظرنا المصير ذاته في هذه الزنزانة التي تبدو لي كثقبٍ أسود خبيث امتصّ وما زال يمتصّ أحلامي وكل ذكرياتي وبالتأكيد جزءاً كبيراً من صحتي.

هبّت نسماتٌ من الهواء محمّلة برائحة التربة المبللة بالمطر عيناي ما زالتا تدوران في المكان في شبه إغفاءة هبّت نسمات أخرى لا أدري ما الذي توقّد بداخلي لفيفٌ من المشاعر انبعث من خلف أكفانها وأخرى انبعثت من تحت رمادها وراحت جميعها تعتمل بداخلي تفور تتوهج لا أدري أيّ جنونٍ أصابها وأيّ شيءٍ أعاد إليها الحياة وأثار جنونها!!

مطر مطر مطر...

لقد استيقظتُ لنداء المطر ونداء الحياة!

تطفو الصور على صفحة ذهني واضحةً هذه المرّة نعم إنّها أشدّ وضوحاً من ذي قبل شيءٌ غريب أشعر به ينبت بداخليَ الآن بالتزامن مع رائحة التربة والمطر.

أتذكّر نعم إنّني أتذكّر بمحض إرادتي لم أعد كسابق عهدي أرى صوراً وأحداثاً تحلّ على مخيلتي على غير موعدٍ لقد بدأت ذاكرتي تستعيد عافيتها وبدأت الأشياء والصور تحمل معنىً عاطفياً ومذاقاً لذيذاً لا أدري كيف أصفه لكنه يثير بداخلي عاصفةً من المشاعر تجعلني أتأرجح بين الاشتياق والحزن بين الرغبة العميقة في الضحك والرغبة الأشدّ عمقاً في البكاء.

نعم أتذكّر أني استنشقت هذه النسمات العليلة التي تحمل رائحة التربة التي سقاها المطر كنت طفلاً حينها أقف فوق سطح منزلنا أجول بناظري في الأفق البعيد حيث اختارت التلال أن تستريح منذ عصور طويلة على أعتاب مدينتي يومها صنعت طوفاً من بقايا ألواح خشبيّة شددتها إلى بعضها بحبالٍ ملوّنة لم أعد أتذكّر من أين أتيت بها لكنّي ما زلت أتذكّر تلك البطانيّة الخضراء الثقيلة التي انتزعتها خلسةً وبصعوبةٍ بالغة حين كانت تتدلّى من الجدار المطلّ على حوش منزلنا حملتها وصعدت بها إلى السطح ونصبتها على الطوف كشراعٍ عظيم سيحتضن الريح بكل ودّ عندما تهب كل ذلك تلبية لرغبة طفل لم يرهقه اللعب ولا الضحك أبداً.

هبّت الريح محملةً بذرات خفيفة من المطر ومشبعة برائحة التربة المبلولة انتفخ الشراع البطانيّة محتضناً الريح بقوّة ومحتضناً بالقوّة ذاتها

أحلامي وآمالي بالطيران طقطقت عوارض الشراع ثم انحلّت عقد الحبال وطار الشراع وضرب جسدي وأوقعني أرضاً ثم هوى على جسدي النحيل كان ثقيلاً لم أستطع الفكاك منه انتفضت أطرافي بذعرٍ وأنا أحاول أن أتخلّص من ذلك الثقل الذي ترزح أنفاسي وجسدي تحت وطأته كنت أبدو كطفلٍ لا يجيد السباحة ألقاه سوء حظه في بركة ماء فراح يضرب المياه بيديه وقدميه بذعر وهو يحاول باستماتةٍ التقاط أنفاسه.

شعرت بثقل الشراع البطانيّة يزداد على جسدي حركتي مقيّدة تماماً بدأت أنفاسي تتثاقل رويداً رويداً شعورٌ عميق بالخوف وبالعجز يعتريني الشراع البطانيّة يكتم صرخاتي الفزعة والمستنجدة وفجأة انقشع الشراع كاشفاً عن وجهي فقط.

وكمن أوشك على الغرق وأُنقِذ في اللحظة الأخيرة التقطتُ أنفاسي بشغف...

وشاهدت السماء كأنّي أشاهدها للمرّة الأولى في حياتي!...

نعم شاهدتها وهي تستعدُّ لاحتضان الغيوم الحُبلى القادمة من بعيد وشاهدت ستاراً رمادياً يحجب الأفق البعيد حيث كانت تقف الجبال بوجومٍ مريع منذ عصورٍ سحيقة أحسست بوقع قطرات المطر اللذيذ على صفحة وجهي...

وتذوّقت طعم الهواء النقيّ.

نعم تذوّقته لا أدري كيف لكنه كان لذيذاً رائعاً يتعدّى حدود الوصف وأثقّ تمام الثقة بأنّه ذاته المذاق الذي أتذوّقه الآن.

ربّما هذا هو مذاق الحياة!

ربّما هذا هو مذاق الحريّة!

أزمانٌ طويلة مرّت على هذا الحادث لكنّي وجدت نفسي - الآن - في لحظةٍ واحدة وعلى غير موعدٍ أعيش الشعور ذاته.

التفتُّ نحو الفتحة كان الظلام دامساً في الخارج والهدوء يغلّف كلّ شيء عدت بنظري نحو سقف الزنزانة وابتسمتُ في قرارة نفسي وأنا أقول:

- يلزمني أعوامٌ عديدة كي أعيد برمجة ساعتي البيولوجية على التوقيت الجديد!

أدرت ظهري للجدار وأغمضت عينيَّ باسماً.

فتحت عينيّ فجأة على سماء سوداء مكفهرّة تفور بغيوم رماديّة يمزّقها وميضٌ متكرّر لبرقٍ صامت اعتدلتُ جالساً أشجارٌ جرداء تحاصرني من الجهات الأربع ريحٌ باردة عبثية تصفعني أوراق الخريف تسافر في المكان خوفٌ غامضٌ يتعالى بداخلي عيناي المذعورتان تسافران عبر الريح والظلام والخوف دونما اتجاه على الأرض المغطّاة بالأغصان الجافّة وأوراق الشجر رحت أركض شاقّاً طريقي بين الأغصان المتشابكة متجاهلاً ومضات ألمٍ وحشيّ تذرع جسدي ركضي يتعالى خوفي يتعالى ألمي يتعالى صوت زمجرةٍ مخيفةٍ تلاحقني.

التفتُّ نحو مصدر الصوت لمحتُ كائناً ضخماً شديد البشاعة يركض خلفي ويقترب مني بسرعة أغمضت عينيّ وأنا أحثّ كلّ خليّة في جسدي على بذل أقصى طاقتها للفرار فجأة تعثّرت بغصنٍ جاف

تدحرجتُ على الأرض بضعة أمتار ثم هويتُ متدحرجاً بعنفٍ من أعلى منحدر ترابيّ مغطّىً بالشجيرات الصغيرة.

استقرّ جسدي أسفل المنحدر إعصارٌ متوحّشٌ من الألم يعتصر خلايا جسدي نقلت بصري نحو أعلى المنحدر وأنا أتوقع ظهور ذلك الكائن البشع استجمعت قواي اعتدلت جالساً بحذر رائحة كريهة ملأت أنفي تلفّتُّ حولي على غير انطباع اتسعت عيناي بذهولٍ بذعرٍ باضطراب...!

كان المكان من حولي يعجُّ بجثثٍ بشريّة وحيوانيّة متحللة ومقطّعة الأوصال نهضت واقفاً واستدرت إلى الخلف وخطوت بضع خطواتٍ متفادياً طيوراً جارحة تنغل بمناقيرها ومخالبها في البطون والأحشاء وصلت إلى طريق مسدود بتلّة من الجثث المتحللة تنغل فيها الديدان والطيور الجارحة توقفت ثم درت حول نفسي مرتين أبحث عن طريق يخرجني من براثن هذه المقبرة أو المسلخ لا أدري أي الاسمين يليق بها!!

على الأرض التي تنوء بالجثث والأشلاء شاهدت وجوهاً بشرية زرقاء بعيون برّاقة حية تبرز من بين الفوضى والطين ترصد كل حركة أقوم بها اخترت طريقاً وقبل أن أخطو خطوتي الثالثة شاهدتُ ذلك الكائن يقف أمامي وجهاً لوجه حاولت أن أخطو خطوة إلى الوراء أو في أيّ اتجاه لكنّي لم أستطع هذه المرّة كانت حركتي مقيّدة كلياً!

رأيت وجهه البشع الغاضب يقترب منّي أنفاسه النتنة تلفح وجهي حاولت الصراخ حاولت الهرب العجز والجمود ينشبان مخالبهما في جسدي رفع ذلك المخلوق الرهيب يده ذات اللحم الأحمر والشعر

الكثيف نعم شاهدتُه يرفعها ببطء وكأنّي أشاهد لقطةً بطيئةً من فيلم سينمائي على خلفية صوت زمجرة مموّجة ومضخّمة رأيت اليد ترتفع إلى أعلى دقّات قلبي تزداد شعرت بأنّي سأموت اليد تهوي ببطء بسرعة لا أدري!

الخوف يتعالى بداخلي أراها تشق الفراغ ببطء أنتظر عضلات جسدي تتقلص بألم ضربتْ اليد وجهي بمخالبها فقُذف جسدي إلى الخلف رغم الآلام المبرّحة استجمعت قواي واستدرت متعثّراً أحاول الهرب شعرت بمسامير خرافيّة تثبّت جسدي إلى الأرض أحسست بنصال متوحّشة تمزّق لحم ظهري وخاصرتي بل إنّي سمعت صوت احتكاكها المؤلم بعظام ظهري لا لا لم يكن احتكاكاً بل سمعتها تكشط عظام ظهري بعنف فتعالى بداخلي صوتٌ حادّ يشبه صوت احتكاك أظافر مُدرّسة ساديّة بسطح سبورة فصل دراسيّ بائس.

سرت الآلام رهيبة في جسدي حاولت أن أفرّ حبواً ولكن دون جدوى أحسستُ بلعابه يسيل على ظهري وبأنفاسه تلفح رقبتي باستسلام مريع ظللتُ أترقب انقضاضه أغمضتُ عينيّ استجمعت كلّ قواي وأطلقت صرخة رعبٍ هائلة حمّلتها كلّ ما بداخلي من خوف ورجاء.

فتحت عينيَّ بقوّة نهضت جالساً وانزويت مسرعاً إلى الجدار والرعب ما زال ينشب مخالبه في ذهني وفي جسدي كنت ألهث والعرق الغزير يغمر جسدي درت بعينيّ في صمت المكان لقد كان كابوساً نعم نعم لم يكن سوى كابوس بشعٍ ومرعب لكنّ الألم كان حقيقياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى أشعر بنصالٍ ساديّة تُغرس في خاصرتي تتحرك

بقسوة تبحث عن مواطن الألم فتعتصرها بخبث مرّت لحظاتٌ ثمّ استجاب بعدها جسدي لتلك الإيقاعات الرهيبة وراح يتلوّى حول نفسه كأفعى هنديّة مسّها الجنون.

أدركتُ يقيناً أنّي أصبت بالتهاب في المجاري البوليّة وأنّ هذا الالتهاب حفّز جسدي ضدّ الحصوة التي ترقد منذ عصورٍ في كليتي اليسرى وأدركت تمام الإدراك أنّ الألم سيزداد عنفاً ووحشيّة بعد لحظات فالزنزانة غدت باردةً كما لم تكن من قبل أسرعت أسدُّ الفتحة بأكوام الجبس ثم زحفتُ نحو ركن الزنزانة وآهاتٌ قويّة والآلام أقوى تقطّع جسدي.

حاولت أن أقف ولكنّي لم أستطع أمسكت بخاصرتي محاولاً انتزاع الألم أو تخفيفه لكن وتيرته كانت تزداد كمتتاليةٍ مجنونة أُطلقت ولا يمكن كبح جماحها.

استجمعتُ ما تبقى من قواي ونهضت أذرع صمت الزنزانة وأنا أمسك بخاصرتي فجأةً ودون سابق إنذار انسحب الألم من جسدي كأفعى مذعورة ولم يتبقَ منه سوى بقعة من اللهيب تومض بوهنٍ أسفل خاصرتي.

اتجهتُ نحو زاويتي جلست على الأرض أحاول الإنصات لوهم يركض من بعيد يكسر الأقفال ويفتح الأبواب أحاول الإنصات لكلمات لم تُقَل وشفاه تتحدث دون أن تصدر أي صوت!

في خضمّ هذا كلّه تذكّرتُ "خلف" وتذكّرت المرة الأولى التي عانيت فيها من آلام الكلى نعم أتذكّر هذا الآن تماماً وأتذكّر وجه "خلف" ذلك الفلّاح العشرينيّ الذي جاء إلى الجبهة من ريف الموصل.

أتذكّر ذلك اليوم...

كان ذلك في منتصف أحد أيام صيف عام ١٩٨٧...

في تلك الفترة كانت الحرب العراقيّة الإيرانيّة في ذروتها في تلك الفترة تحديداً انتهت مرحلةٌ داميةٌ من الحرب سُميت تلك الفترة من الحرب بحرب قصف المدن وفيها طالت الصواريخ المدن وتنافس خلالها المتحاربون في إيصال الدمار إلى أبعد نقطة في أرض العدوّ وإلى أعماق التجمعات السكانية وبانقضاء تلك الفترة دخلت الحرب مرحلة جديدة سُميت بحرب قضم المواقع كانت المعارك في هذه المرحلة شرسةً تدور لأيامٍ متواصلة وربما لأسابيع لانتزاع أمتار أو بضع كيلومترات من الطرف الآخر.

في ذلك اليوم البائس كنت في خندق رمليٍّ عالٍ تنزُّ جدرانه وأرضيته مياهاً غزيرة كان يوماً غريباً يختلف عن كلّ الأيام التي مرّت عليَّ في هذا الجحيم الاستثنائيّ فالغيوم كانت تكسو سماء المنطقة وتهبط لتتناثر كضباب ثقيل يغطي كل شيء بشكل لم تشهده المنطقة منذ عقودٍ طويلة القذائف الإيرانيّة تهوي على المكان بغزارة القذائف العراقيّة تصفر فوق رؤوسنا صفيراً حادّاً متواصلاً لا يكاد ينقطع الانفجارات تتعالى هنا وهناك السماء تمطر ناراً ورمالاً رائحة البارود والكبريت المحروق تملأ المكان...!

إلى جواري في الخندق جنديان أحدهما عراقيّ يدعى "خلف" -فلّاح عشرينيّ قدم إلى الجبهة من ريف الموصل والآخر مصري يدعى "مصطفى رمسيس" جاء إلى العراق قبل ثلاثة أعوام ليعمل سائق شاحنة في إحدى

مؤسسات القطاع العام وبعد ثمانية أشهر من قدومه وجد نفسه متطوّعاً في الخطوط الأماميّة للجبهة.

أمام تلك الأمطار القاتلة من الرصاص والقذائف المجنونة احتضن كلٌّ منّا سلاحه بيد وثبت خوذته على رأسه باليد الأخرى وانزوينا في قاع الخندق ننتظر...

ننتظر ماذا؟!

لا أدري!

فلم يكن لدينا ما نفعله سوى الانزواء في قيعان الخنادق وسماع أصوات القذائف وصفيرها وحين تهدأ الأمور ويكفُّ المتحاربون عن رشق بعضهم بالقذائف كنّا نسترق - بالتناوب - لحظاتٍ من النوم القلق وحين يجافينا النوم كنّا تحت ستار ذلك الضباب العجائبيّ ننصت إلى أصوات الجنود الإيرانيين يتحدّثون وربّما يضحكون وأحياناً يصرخون يبكون وينادون الحسين بألم عميق!!

كانت الخنادق قريبةً بعضها من بعض، إلى درجةٍ لا تصدّق. وكان كلّ طرف يتمّسك بمواقعه باستماتةٍ. في إحدى الليالي الحالكة، قبل أربعة أيامٍ تحديداً، سمعتُ نحيب شابٍ؛ نعم، سمعته بوضوح، كان ينتحب بحرقةٍ، ويتمتم بكلمات لم أفهمها. وسمعت صوتاً آخر يواسيه؛ كان صوتاً وقوراً، هادئاً، ودافئاً. وعلى الرغم من أنّي لم أفهم من الحوار الفارسيّ شيئاً؛ إلّا أنّي استطعت أن أخمّن مضمونه، الذي دار بين روح شابةٍ، حالمةٍ، ترفض الحرب، وتتمسّك بأهداب الحياة، وبين أخرى متحجرة، أرهقها السهاد، وأعطبتها الأماني الكاذبة، تحاول أن تقايض حياة أخرى بهذه الحياة هي في علم الله.

على بُعد ثلاثة أمتارٍ منّي كان "خلف" يُتمتم بشيءٍ ما مغمضاً عينيه على بُعد ثلاثة أمتار أخرى كان "مصطفى" يفعل الشيء ذاته ويناجي العذراء ويقبل صليباً أرثوذكسياً صغيراً يتدلّى من رقبته.

في ذلك اليوم كان الموت قريباً منّا إلى درجةٍ لا تصدّق كان يسير بقربنا يتخطّى رقابنا المرتعشة يومها سمعت حفيف عباءته شممت عطره الكبريتيّ ولمحت عينيه في وهج الطلقات التي تعبر سماء المنطقة وفي تلك التي تذوي في سواتر الرمل حينها بدت لي البندقيّة جامدة وغبيّة وبدا لي كلّ ما يحدث لا يعدو كونه حلماً هرائيّاً سأصحو منه عاجلاً أم آجلاً لكنّ دفقات الخوف التي تندفع بداخلي وذلك الطنين الذي يتعالى في رأسي جميعها تخبرني بغير ذلك!

قطع خوفنا وشرودنا صوت "مصطفى" يصرخ. وقبل أن نلتفت نحوه كان يعدو نحونا ثم ألقى بجسده بيننا مطوقاً رأسه بذراعيه لثوانٍ لم نستوعب الأمر ولم نفهم مغزى تصرفه لكنه بعد ثوانٍ انتزع نفسه من مياه القاع ومن وحله وأشار بكلمات عجماء إلى حيث كان يجلس وهناك شاهدنا ذيل قذيفة "هاون" مغروساً في وحل الخندق.

بعد أن استوعبنا الأمر استجمع "مصطفى" قواه وابتسم ثم حبا على ركبتيه نحو القذيفة التي لم تنفجر وانتزعها برفق ثم رفعها فوق رأسه ليرميها خارج الخندق لأجزاء من الثانية أخرج "مصطفى" رأسه من الخندق وقبل أن تغادر القذيفة راحته أردته صلية إيرانيّة اقتلعت خوذته والجزء الأعلى من رأسه ثم هوى جسده على الوحل والماء.

جرى كلّ ذلك بسرعة لم تستطع أذهاننا التي اعتصرها الخوف استيعاب أو تصديق ما جرى لكن الدماء التي ملأت مياه الخندق ووحله

وعيني "مصطفى" الجاحظتين جميعها أقنعتنا بعد ثوانٍ قليلة بحقيقة ما جرى!

تراجعتُ إلى الخلف وكذلك فعل "خلف" حاولنا تحت وطأة الصدمة أن نبتعد عن جسد "مصطفى" ودمائه ما أمكن وبعد كلّ خطوةٍ كنت أخطوها كنت أرسل نظرةً نحو جسد "مصطفى" كنت أرى الموت يفترسه يقضم أطرافه يمتصّ أمعاءه كما يمتصّ غرٌّ جائع خيوط الاسباجتي.

زحفنا حبونا سرنا ابتلعتنا تلك الخنادق الدوديّة المملوءة بالمياه والوحل والدم والجثث والسلاح وحين وصلنا إلى خندق تغمره المياه تماماً وتحوطه غابةٌ من جذوع النخيل المدمّر توقفنا عن التراجع وبقينا هناك تغمرنا المياه حتّى ذقوننا نستمع إلى أزيز الرصاص الذي يعبرنا ويضرب ما حولنا ونشاهد الانفجارات والحرائق البعيدة ونستقبل الرمال المتطايرة لم يكن لديَّ ما أقوله لـ"خلف" ولم يكن "خلف" في حالة تمكّنه من سماع أو قول أي شيء كنّا نرتجف نهتزّ ننتفض ونموت على وقع كلّ انفجار وعلى صوت كلّ صفير يأتي أو يغادر المكان.

في خضمّ ذلك كلّه وحين شعرت بمذاق الدم يتعالى في فمي أحسست بنصل حارّ يُغمد في خاصرتي تحسست مكان الألم كان الألم مجنوناً ومتوحشاً تلوى جسدي في الماء والوحل كجسد تمساحٍ ملدوغ أمسك "خلف" بذراعي دسّ يده في خاصرتي تحسس موطن الألم هممت بالوقوف لكنه منعني صرخت بكل ما أوتيت من قوّة مدّ "خلف" يده الموحلة المذعورة وأغلق فمي كان الألم عنيفاً يتخطّى أيّ شعورٍ بالخطر ويتخطّى أيّ هيبة قد يصنعها الموت لنفسه في الظروف العاديّة.

لم أدرك ما أصابني -لكن "خلف" عرف وسألني بتوتر:

- هل تعاني من حصوة في الكلى؟

يومها هززت رأسي نافياً فعاد يتحسس موضع الألم وسألني عن موضعه بالتحديد وحين ثبّت كفّه - بصعوبة - على موطن الألم ندّتْ مني آهة عميقة فانتزع كفّه وهو يقول بقلق:

- إنها الكلى دون شك!

وقبل أن ينهي كلماته انفجرت قذيفة "هاون" خلفنا بأمتار عديدة، فتناثرت الرمال فوقنا بغزارة تعالت آهاتي أغلق "خلف" فمي بكفه المرتعشة بقوة وهو يتمتم - باكياً - بشيء ما نعم كان يبكي شاهدت الدموع تتجمع في عينيه الرماديتين ثمّ شقّت طريقاً لها على بشرته الموحلة دار بعينيه في الأنحاء المعفّرة بالضباب يترصّد المساعدة ولكن دون جدوى أفلت فمي وأسندني لجدار الخندق ثم انتزع خوذتي ورماها جانباً انتزع مسدّسه من جرابه باضطراب ثم وضع يده المرتعشة على فمي وأغلقه بعنف شاهدته يصوب المسدس نحوي وعيناه تدوران في الأنحاء ذعرت تخشّبت أطرافي ركلت الماء والطين قاومته حاولت الفكاك من أسر قبضته لكنها كانت أقوى من كلّ محاولاتي ومن كلّ صرخاتي تقلّصت ملامحه أغمض عينيه وأغمضت عينيّ سمعته يقول بصوت باكٍ:

- سامحني رفيق!

ثم هوى بمسدسه على صدغي على وقع الضربة اصطدم رأسي بالجدار ثم اندفعت المياه إلى فمي لم أكن قد فارقت الوعي، فسمعت

صوت "خلف" ينتحب ثم رأيته ينتشل رأسي من الوحل والماء ويضمّه إلى صدره سمعت دقّات قلبه المضطرب وسمعت صوت بكائه الذي أطلق له العنان غير آبهٍ للخطر الذي يترّبص بنا آخر مشهد شاهدته ذلك اليوم كان وجه "خلف" الباكي ملطخا بالوحل على خلفيّة السماء الرماديّة.

كانت تلك آخر مرّة رأيت فيها "خلف" ثم انقطعت أخباره عنّي تماماً ولم أشاهده في ساحات الحرب أو حتّى في ثكنات الجيش حينها وبعد طول بحث وصلت إلى يقين بأنّه قد لقي حتفه في الحرب وبعد أن انتهت الحرب التهمتني هذه الحياة والتهمت "خلف" من ذاكرتي.

في أواخر يناير من العام ٢٠٠٣ التقيته صدفة في غرفة دردشة تضم قدامى المحاربين في الحرب العراقية الإيرانية كان يضع على(بروفايله)صورةً قديمة له وهو يقف فيها أمام جداريه ضخمة رُسم عليها وجه الخميني وهو يرفع إصبعيه بشارة النصر "خلف" في الصورة كان يرتدي زيه العسكري وخوذته وجعبته ويرفع بذراع قوية الكلاشنكوف عاليا بشموخ واضح.

وقتها لم أشكّ أبداً في أنّه "خلف" على الرغم من أنّه يحمل في غرفة الدردشة اسماً مستعاراً غريباً هو (Nano99 حادثته وكان هو بالفعل كان ما زال في العراق بعد مرور عشر دقائق على التقائي به صدفة في غرفة الدردشة حادثته عبر كاميرا الويب فوجدته رجلاً وقوراً ضخماً لم تفت السنون في عضده ولم تسلبه ابتسامته ولا مزحاته تحادثنا كثيراً ولمرّات عديدة كانت لقاءاتنا شبه يوميّة في إحدى المرّات أخبرني بأنّي في ذلك اليوم

البعيد من العام ١٩٨٧ حين كنّا معاً في خندق الحرب فقدت وعيي وأنّه حملني فوق ظهره وزحف بي فوق الرمال وبين الخنادق والمتاريس حتّى أوصلني إلى المستشفى الميداني وفي اليوم نفسه تمّ نقله إلى الجبهة الشماليّة تحديداً إلى السليمانيّة وبقي في تلك الجبهة إلى أن انتهت الحرب.

وعلى الرغم من ضحكاته ومزحاته التي لا تنتهي شعرت بخوفٍ رهيب يسيطر عليه ويبتر كلماته ويغلق مواضيعه التي يشرع في فتحها معي كان يأمل في الخروج من العراق على أيّ وجهٍ كان حاولت أن أتدّبر له الأمر وكدت أن أنجح في ذلك بل إنّي فعلت واستطعت أن أستخرج له ترخيصاً للعمل في إحدى الشركات الأمنيّة في دولة عربية شقيقة إلّا أن الحرب كانت هي العائق الكبير الذي لم نستطع تجاوزه.

حين اندلعت الحرب الأمريكيّة على العراق انقطعت أخباره وانقطعت الاتصالات عن العراق وظلّت كذلك حتى أواخر أغسطس من العام ٢٠٠٣ وفي صباح يوم جمعة عادت الاتصالات مع العراق فأسرعت لطلب منزل "خلف" في الموصل رنّ الهاتف طويلاً ثم رفعت السماعة ابنته "نادية" أخبرتني باكيةً أن والدها استشهد في معركة المطار الشهيرة حينها هوت السماعة من يدي كما يهوي ستار ثقيل في نهاية فصل من مسرحيّة تراجيديّة طويلة.

أدركت يومها أن خطّاف الموت التقط "خلف" هذه المرّة غير آبهٍ لكل الدعوات التي كالتها أم "خلف" لولدها ولا لأسرته الصغيرة التي تنتظره صورة "خلف" وكلماته لم تفارق ذهني أبداً لسنوات طويلة قادمة بل إنّي كنت أشاهده أمامي مواسياً حين تعتصرني آلام الكلى!

في مارس من العام ٢٠٠٩ أصيب الرفيق "فيدل كاسترو" بوعكة صحيّة وفي بداية أبريل من العام نفسه ذهبت إلى هافانا بمعيّة وفد أممي لزيارة الرفيق فيدل في مشفاه بعد فراغنا من الزيارة اتجهت إلى الساحل الكوبيّ حيث يمكن للإنسان مشاهدة أجمل منظر للغروب وحيث يمكن أيضاً مشاهدة قاعدة جوانتنامو الأمريكيّة ومعتقلها الشهير لم أعد أتذكّر فيمَ كنت أفكر في تلك اللحظة وأنا أغوص في الشمس الغاربة كنت شارداً ساهماً لا أسمع ولا أرى...

فجأة سمعت صوتاً غريباً ثم صوت ضحكةٍ طويلة انتزعتني من شرودي التفتُّ إلى الخلف فطالعتني ملامح "خلف" وقد صبغت الشمس الغاربة ملامحه وجسده بلونها الأحمر الناريّ اقترب منّي ضاحكاً ثم معانقاً دمرني بعثرني سلبني كلّ قدرة على التفكير أو على تصديق ما يحدث وحين تحررت عيناي من أسر حمرة الشمس ومن أسر الذهول وجدته شيخاً عاتياً يلبس سروالاً قصيراً أبيض اللون وقميصاً قصيراً باللون ذاته مفتوحة أزراره حتى ما قبل سرته ويعتمر قبعة كاريبيّة وبين إصبعيه سيجار كوبيّ ضخم.

قضيت تلك الليلة بمعيته كان يشرب بنهم ويأكل المأكولات البحريّة بنهم أكثر أخبرني أنه يقيم في كوبا منذ أعوام لكنّي لم أكن أبحث عن تلك القصة حين أشعل سيجارته الثامنة عشرة سحب منها نفساً ثم أطفأها في منفضة سجائر قذرة تتوسطنا نظر في عينيّ لحظات ثم أزاح المنفضة جانباً وقال:

– أعرف ماذا تريد!

لم يكن ظهوره أسطوريّاً كما توقّعت بل على العكس من ذلك كان "خلف" في العام ٢٠٠٣ يرابط في المواقع الخلفية وحين بدأت نذر معركة المطار شرب ما استطاع من بُطل عرق كان يخفيه في خيمته ثم دفن بندقيته في الرمال وشقّ طريقه خلسة عبر المزارع والرمال وفي مزرعة تبعد ٢٨ كيلومتراً عن المطار تخلص من زيّه العسكري وارتدى زياً بدوياً وتابع مسيرته.

في الظروف العاديّة يمكن لهذه المسافة أن تكون كافية لجعله يطمئن بأنه أصبح خارج ميدان المعركة لكنّه وقع في خطأ مريع فقد كان منذ لحظات فراره الأولى يسير في الاتجاه الخاطئ فبعد أن انتهى من عبور سياج مزرعة نخيل ذات أشجار هزيلة وجد نفسه وجهاً لوجه أمام دوريّة متوقّفة للجيش الأمريكيّ كان أحد أفرادها يفرغ مثانته على إطار سيارة الهمر وقبل أن يقول "خلف" شيئا وقبل أن يرفع يديه عالياً رفع أحد الجنود بندقيته وأطلق - بذعر - بضع طلقات جميعها مزّقت جسد "خلف" أخبرني "خلف" بأنه لم يشعر إطلاقاً بدخول تلك الطلقات إلى جسده على الرغم من أن إحداها مزّقت كليته اليمنى وأخرى اخترقت صدره وثالثة مزقت عضلات كتفه ولم يعد يتذكّر من كل ذلك سوى صورة الجنديّ الذي يفرغ مثانته واقفاً ووميض فوّهة البندقية.

وقف "خلف" ورفع قميصه فشاهدت علامات الخياطة الجراحيّة تشوّه مناطق واسعة من جسده وغدت آثارها بمرور الزمن تشبه سياجاً عبثيّاً من الأسلاك الشائكة.

بعد أربعين يوما من تلك الحادثة فتح "خلف" عينيه ليجد نفسه في سرير مستشفى عسكري أمريكي في قاعدة الحبانية حمد الله كثيراً على بقائه

على قيد الحياة وأوّل شيءٍ طرأ على مخيلته في تلك اللحظة هو الاتصال بأسرته للاطمئنان عليها وحين سمح له العريف الأمريكيّ الموكّل بحراسته بإجراء الاتصال صارع "خلف" كلّ آلامه وسار خلف العريف نحو كبينةٍ للاتصالات دلفها وأدار الرقم بأصابع مرتعشة وانتظر حتى جاء صوت زوجته على الطرف الآخر التي ما كادت تسمع كلماته الأولى حتى انهارت فالتقطت السمّاعة ابنته "نادية" وبعد أن تمالك الطرفان نفسيهما أخبرته أن فدائيي صدّام جاؤوا إلى البيت للسؤال عنه وبعد أربعة أيامٍ من الزيارات المتكرّرة أخبروا العائلة أن ربّها خائن وأنّه يعمل في الحبانيةٍ مرشداً للجيش الأمريكيّ وعلى إثر ذلك تمّ اعتقال وإعدام خاله الخمسينيّ وابنه "جبار" عندما سمع "خلف" كل ذلك اهتزّت الدنيا والمشاهد في عينيه وسقطت سمّاعة الهاتف من يده وصوت ابنته "نادية" ما زال يدوي فيها أسند ظهره إلى الجدار وترك جسده يتهاوى ببطءٍ حتّى استقرّ جالساً على الأرض وظلّ بعينين دامعتين يراقب سمّاعة الهاتف التي تتدلّى نحو الأرض وهي تفور بكلمات "نادية" المحمومة استجمع قواه ونهض ثم التقط سمّاعة الهاتف وظلّ ينظر إليها لحظات ثم أغلقها وغادر كبينة الاتصال بأطراف متخشّبة وعينين دامعتين.

مرّت عليه الأيام التالية ثقيلة وحزينة، وخلالها عرف أن كلّ شيء انتهى في العراق وأن الجيش بكلّ تشكيلاته قد تمّ حله وأن صدّام مختفٍ في مكان ما في العراق وأنّ المقاومة تضرب هنا وهناك وأن حاكماً أمريكيّاً يحكم العراق اسمه بول بريمر وأيقن أن خروجه من هذا المعسكر وعودته إلى منزله هو محض انتحار وأنّه مقتولٌ لا محالة.

في الأشـهر التاليـة، تعـرّف إلى مجنّـدةٍ أمريكيّـة سـوداء، أخبرهـا بمشكلته، ووعدته ببذل أقصى ما تـستطيعه في سبيل حـصوله عـلى إذن للخروج مـن العـراق، للعـلاج واللجـوء في الولايـات المتحـدة. لكـن "خلف" - حتّى وإن تظاهر بغـير ذلـك - لم يكـن ليـصدّق كـلّ تلـك الوعود التي قطعتها المجنّدة الأمريكيّة، ولم يكن يصدق أن تلك المجنّدة، التي ستلقى حتفها في "أبو غريـب" بعـد ذلـك بثمانيـة أشـهر، لم يكـن يصدق أنها ستساعد جنديّاً عراقياً سابقاً، كان يمكن أن يقتلهـا أو تقتلـه لو التقيا في ساحة المعركة!

لكن كلّ تلك الشكوك التي كانت تملأ رأسه طـارت في صباح يـوم ثلاثاء عندما وصله خطاب من الجيش الأمريكي يخطره بموافقته على نقلـه إلى الولايات المتحدة للعلاج.

مرّت ثلاثة أيام على تلقيه إخطار الموافقة وفي اليوم الرابـع أقلّتـه طـائرة نقل عسكريّة أمريكيّة من قاعدة الحبانية وهبطت به في مطار فرانكفـورت ومن هناك نُقل إلى مشفى عسكريّ في إحـدى القواعـد الأمريكيّـة وتلقـى العلاج.

في ذلك المستشفى وأثناء جلسات العلاج الطبيعيّ تعرف عـلى جريحـة أمريكيّة بدينة فقدت سـاقيها وذراعيهـا في الـصقلاوية تطـورّت العلاقـة بينهما سريعاً ثم توجت بالزواج.

غادرا المستشفى بعد عـامين كـاملين ثـم اسـتقرا في الولايـات المتحـدة والبلدان الكاريبية مستفيدين من معاش التقاعد الذي منح للزوجة ومن الإعانة التي تمنح له من الحكومة الأمريكيّة وعلى الرغم مـن أنّـه اختـار -

مرغماً - حياة جديدة وعلى الرغم من تبدل الأوضاع ظاهرياً في العراق إلّا أنه لم يجرؤ على العودة إليه وكان يتعهّد أسرته براتب شهري مجزٍ ويداوم على الاتصال بهم ثلاث مرّات في الأسبوع.

حين عرفتُ الجزء المفقود من قصة "خلف" نهضت واقفاً وأمعائي تفور جراء شربي كميات كبيرة من شراب جوز الهند استدرت حول المائدة متّجها نحوه كنت أريد أن أعانقه نعم كنت أريد أن أكفّر بذلك عن لحظة شكّ خامرتني تجاهه نهض واقفا بدوره وعلامات التعجّب تملأ وجهه ابتسمت بوهنٍ وشيءٌ غريب يعتمل بداخلي يقيناً لم تكن تلك أعراض إفراطي في شرب عصير جوز الهند فتحت ذراعيّ وقبل أن أحتضنه وقبل أن تصفعني رائحة تبغه ورائحة خمرته شعرت بنصلٍ رهيب يغمد في خاصرتي فقدت توازني وسقطت على الأرض وسقطت بجواري المائدة والقوارير التوى جسدي حول نفسه التواءات دوديّة شاهدت الأقدام تتجمع حولي سمعت الأصوات تتزاحم رُفعت إلى أعلى وحُملت خارجاً شاهدت السقف الأضواء السماء وسعفات النخيل ثم انتهى كلّ شيء.

أفقت بعد يومين لأجد نفسي في أحد مشافي هافانا، ممدداً على سريرٍ نظيف، في غرفة خالية من كلّ شيء، عدا مروحة سقفٍ تدور بكسل، وباقة زهر أصفر موضوعة على طاولة بجوار سريري. دلفت إلى الغرفة ممرضة كوبيّة عارمة الصدر. وبعد أن فحصت موضع العمليّة، أخبرتني بأن جراحاً كوبيّاً ماهرا قد انتزع من كليتي اليمنى حجراً يوازي في حجمه حجم بيضة دجاجة داعرة. يومها شاهدت "خلف"، وإلى

جواره زوجته "لورا"، التي تسير بأطراف اصطناعية، وتضع حول رأسها طوقاً صغيراً من الزهر. كانت هيئتها في الصباح ملائكيّة، بل بديا لي كزوجين فرّا من الجنة ليحطا على سطح هذه الجزيرة البائسة، بجوار هذا الكرسيّ البائس.

قبل أن أغادر المشفى ودّعني الطبيب الكوبيّ الذي لا أتذكّر اسمه لكنّه كان شديد الشبه بباتريس لوممبا إلى درجة لا تصدّق ثم أخبرني بأن الحصوة يمكن أن تعود إلى كليتي في أي لحظة إن لم ألتزم بالحمية المطلوبة وأكّد لي كذلك أني أحمل رمالاً في كليتي اليسرى ربّما قد تغدو في يوم ما حصوة مزعجة.

**انتزعني من هذه الذكرى**، ومن أمام تلك الوجوه والأحداث، نصلٌ شيطانيّ هوى من المجهول، من العتمة، واستقر في خاصرتي، ثم راح يسافر في خارطة جسدي، مخلّفاً وراءه كرنفالاً جنونيّاً من التشنّجات والتأوّهات.

لا شيء يمكنه أن يخلصني من هذا الألم الآن انثناءاتي حول جسدي ردّ فعل للألم وليست إجراءً وقائيّاً يخفف من حدّة الألم جلست في زاويتي ولففت جسدي ببقايا بطانيتي أسندت ظهري للجدار ودفعت قدمي للزاوية المقابلة علَّ ضغط الجدار على أسفل ظهري يخفف من حدة الألم لكنّ إيقاع الألم ازداد وحشيّة وجنوناً في هذه الحالة وفي غياب أيّ حلّ طبي لا شيء يمكنه أن يقضي على الألم سوى ألم أشدّ منه!

أو...!!

أدركت أنه حلٌّ مؤلم. لكنّه الحلّ الوحيد للنجاة من هذا العذاب الفظيع.

أنزلت قدمي من على الجدار. جلست القرفصاء. أعدت لفّ جسدي بالبطانيّة. لثوانٍ ظللت أحدّق في الجدار، حيث كان "خلف" يقف بزيّه العسكري وخوذته، يحدّق بي بوجوم. انتفض جسدي. تشنّجت أطرافي. كتمت آهة ألم قوية بداخلي. حبست أنفاسي، ثمّ اقتحمت الجدار برأسي. آخر ما سمعته كان صوت فرقعةٍ قويّة، مصحوباً بضوءٍ ثم انتهى كلّ شيء.

# VIII

لا أدري كم مرَّ من الوقت!!!...

كنت ملقىً على الأرض بوضعٍ غير مريح ملفوفاً ببطانيتي...

فتحت عينيّ أو بالأصحّ عيني ببطءٍ وبصعوبة فالعين اليمنى كانت مغلقة تماماً بطبقة جافة ولا أقوى على فتحها قاومت جبالاً من الوهن أرزح تحت وطأتها اعتدلت في جلستي مددت يدي المرتجفة المغلّفة بأربطة القماش المشبع بالدم وبمسحوق الجبس وتحسست عيني المغلقة أسرعت أظافري إلى حكّ وتقشير جزء من الطبقة الجافّة حتّى تحرر جفناي من أسرها شعرت بتلك الطبقة الجافة تمتد من أعلى جبيني وحتّى أسفل صدري مروراً بوجهي وعنقي أدركت يقيناً أن جرحي قد نزف بغزارة ولا أدري إلى أين وصل جريان الدم تجاهلت بقيّة الطبقة الجافّة نعم تجاهلتها على الرغم من أنّها تعطيني شعوراً بأنّ جلدي ضاق على جسدي وأنّي قد بدأت أجتاز أولى مراحل التحوّل إلى حيوانٍ زاحف ذي جلد قاسٍ تعلوه النتوءات والزوائد.

تحسست الجرح في جبهتي وجدته متوسطاً ملمسه وحجمه يشيان بنزيف غزير توقّفت بسبابتي على سطحه الرطب شعرت به ينبض على الرغم من أنّه لم يعد ينزف التصقت عيناي ببقعة الدم التي خلفها اصطدام رأسي بالجدار كانت بقعة مستديرة داكنة اللون ظللت أحدّق فيها وأسترجع ما حدث لي راحت البقعة تكبر وتكبر وتكبر وكلّما كبر

حجمها اقتربت منّي أكثر بدت لي ككهفٍ عميق مظلـم تـسكنه ملايـين الوطاويط العمياء العطشى للدماء الأصـوات الرهيبـة الآتيـة مـن عمقـه أعرفها جيّداً وأستطيع أن أميّزها عن بعـضها رغـم تـداخلها نعيـق بـوم فحيح أفاعٍ نعيب غربان عواء ذئاب وأصوات أخرى رهيبة تثير الرعـب في نفسي إلى أقصى الحدود.

الكهف يفغر فاه في وجهي كوحشٍ أسطوريّ اتخذ قراراً نهائياً بابتلاعي ريحٌ حارّة وكثيبة تندفع من عمق الكهـف تلفـح وجهـي أصـوات رهيبـة تتعالى الكهـف يمتـصّني نحـو الـداخل نعـم أشـعر بـه يمتـصّني نحـو الداخل أتمسّك باللاشيء الكهف يقترب ويقترب أطرافي تتجمـد تـشلّ حركتها كلياً أصابعي فقط تقبض برعـبٍ عـلى أطـراف بطـانيتي صـوت صرخة رهيبة اندفع من داخل الكهف عـصف بكيـاني وقبـل أن يبتلعنـي ذلك الكهف الرهيب أشحت بوجهي بعيداً وانتزعـت عينـيّ مـن براثنـه دفعةً واحدة وجدت نفسي في زنزانتي أجلس أمام الجدار مرتعداً ومتحاشياً النظر إلى البقعة الداكنة.

على وقع الخوف والحمى راحـت أنفـاسي تتلاحـق بـشدة استجمعت قواي اتجهت بوهنٍ نحو زاوية الزنزانة حاولت أن أفـرغ مثـانتي في الـدلو الحديديّ لكن كلّ محاولاتي باءت بالفشل أشـعر باحتقـان مـزعج أسـفل بطني تصاحبه رغبةٌ شديدة في التبوّل استجمعت أنفاسي وقواي ودفعـت بكل ما أملك من قوة لكن كلّ ما غادر مثانتي لم يكـن سـوى قطـرتين مـن البول امتزجتا بحمرة الدم عدت أدراجـي وأنـا أنقـل نـاظري بـين بـاب الزنزانة وبين الحفرة في الجدار.

أدركُ تماماً أنّ المسألة ما هي إلّا مسألة وقت وسيعود الألم بسبب وجود الحصوة أو بسبب انحباس البول وبالتأكيد فالألم سيكون أشدّ من سابقه برودة الزنزانة وكذا حالة الخمول التي أرزح تحت وطأتها كلها عوامل تحفز الكِلْية على الانقباض حول الحصى خطر ببالي هذا الخاطر فوقفت ولففت البطانيّة حول جسدي ثم أعدت تشكيل الملعقة ووعاء الماء وصنعت منهما أدوات للحفر ثم اتجهت بعزمٍ لمواصلة العمل.

مع كلّ ضربةٍ أضربها في الجدار كنت أنقّل بصري بين الخارج - الذي بدأ يلوح عبر الثقب الصغير - وبين بوابة الزنزانة.

أدرك يقيناً أن تحطيمي لوعاء الماء واستخدامه في الحفر يعني أنّني لن أستطيع الحصول على الماء مجدداً دون أن أبادل الوعاء القديم بالوعاء الجديد هذا يعني أيضاً أنّ الوقت يضيق أمامي وأن قراري بالمغادرة من هنا لا يمكن التراجع عنه فقد وصلت إلى نقطة اللاعودة ومن خلفي يقف طابورٌ طويل من الأعداء يتربّص بي ويزداد طوله وشراسته كلّما طالت فترة مكوثي هنا أوّل من يقف في طابور الأعداء هذا كانت الحمى والالتهاب وآخرهم العطش وبينهما ما قد أعجز عن إحصائه أو حتّى تخيله.

يا إلهي في أيّ مأزقٍ أنا؟!!

أقبع وحيداً وضعيفاً واهناً أصارع هذا الطابور الطويل من الأعداء ليس لديّ ما أخشاه من الخارج الموت ينتظرني!!

لا أخشاه فهو ينتظرني كذلك هنا في هذه الزنزانة الأبديّة ولطالما شعرت بأصابعه تتحسسني وبأنفاسه تلفح وجهي إذن فالنتيجة واحدة

لا فرق نعم لا فرق لكن المحاولة ستمنحني عزاء الموت بضمير غير مثقلٍ بالاحتمالات وستمنح روحي راحة في حياتها الأبديّة إذن سأمضي في طريقي نعم سأنهي ما بدأته.

ربما فعلت ما فعله أجدادنا على شواطئ إسبانيا عندما أحرقوا قواربهم لكي لا يكون أمامهم من خيار سوى النصر للفرار من الموت الذي كان ينتظرهم يقيناً على أسنّة رماح الإسبان أو في لجّة البحر.

ما زلت أمسك بآلتي الحديدية بكلتى يديّ وأهوي بها بكلّ ما أوتيت من قوّة على الجدار الإسمنتيّ الحفر غداً صعبٌ وشاقٌّ ومؤلمٌ ومع ذلك فالجدار تتهاوى ذراته ببطءٍ شديد والحفرة تتسع ببطءٍ أشد جسدي المنهك يرتعش ويلفظ سيلاً من العرق وعلى الرغم من الإرهاق الذي راح ينشب مخالبه في جسدي إلّا أنني كنت أدرك أنّ كلّ مليمترٍ أحصل عليه بعد كلّ ضربة يشكل فارقاً كبيراً بالنسبة لي فارقاً بين ماضٍ مؤلم ظللت أتجّرع ويلاته وبين مستقبلٍ يضجّ بالخلاص ينتظرني خلف بضعة سنتيمترات فقط من الخرسانة.

حواف الحفرة تومض بضوءٍ خافت دنوت من الحفرة وأرسلت ناظري نحو البعيد نحو الأفق الذي بدا رمادياً وهو ينفض ببطء آخر ما علق بوجهه من سخام الليل الأشعة البرتقالية تتجمع على حواف المشرق كبالون أسطوري يكبر باطراد ناثراً الضوء على ذؤابات الشجر وعلى نتوءات الصخور أحاول على غير وعي أن أتذكر آخر مشهد شاهدته للغروب إلا أنّني أجد نفسي عاجزاً عن تذكّر متى كان ذلك ألم أقل سابقاً أنّ ذاكرتي أصابها الذبول؟!!

وحتّى إن تذكّرت أو تخيلت فلا معنى لذلك إطلاقاً ولا يغير ذلك من جوهر الموقف شيئاً فما زلت أقبع بين هذه الجدران أسيراً حائراً يبصق الوقت في وجهي حكايا وذكريات متفرّقة من حياة عشتها ولا أتذكّرها إطلاقاً أفني جُلّ وقتي غير الثمين محاولاً جمع تلك الحكايا والذكريات أعيد فرزها ولصقها وربطها بعضها ببعض أريد أن أتخلص من هذه الحيرة الخانقة أريد بكل كياني أن أحصل على القصّة كاملة أن أعرف لماذا أنا هنا وكيف دخلت إلى هذه الزنزانة وماذا اقترفت لأستحقّ هذا العقاب لكنّي أبدو كمن يحاول جمع أجزاءٍ صورة ممزّقة فقدت الكثير من أجزائها أو كمن يحاول حلّ أحجيةٍ عقيمةٍ حاول الكثيرون حلّها دون جدوى يفنى الإنسان وتبقى الأحجية عصيّة على الحل عصيّة على الفهم ربّما هي أحجية الحياة تلك المأساة التي وجدنا أنفسنا محشورين بين طياتها رغماً عنّا نحاول عبثاً فهمها تنميق وجهها وربّما نحاول تطويعها وقد تخدعنا بانسياق كاذب تبديه لنا لكنّها في الحقيقة تجرفنا بقوّة نحو الهاوية الأزليّة التي لا فرار منها هاوية الفناء هذه الزنزانة ليست سوى دنيا صغيرة سأغادرها نعم سأغادرها لكنّي أخشى أن أغادرها إلى دنيا أخرى أكثر وحشيّة وأكثر إيلاماً.

تركتُ الشمس والأفق وصخب الطيور التي غادرت أعشاشها للتوّ والتقطت آلتي وعدت للضرب بقوّة على الجدار وفجأة توقّفت عن الضرب وأطرقت مفكراً للحظات رميتُ بآلتي جانباً واتجهت بسرعةٍ نحو ركن الزنزانة والتقطت الدلو الحديديّ وضعته وسط الزنزانة بجسمٍ ضعيفٍ يرتجف اعتليت الدلو والتقطتُ المصباح الكهربائيّ مستخدماً قطعةً من البطانيّة قاومت صدمة الظلام بصعوبة وضعت

المصباح جانباً ثم جذبت السلك الممتدّ على سقف الزنزانة وجدارها حتّى آخر نقطة له عند المفتاح الكهربائي اتجهت نحو المفتاح الكهربائيّ وفتحت الدائرة الكهربائيّة ثم أزلت بأسناني الطبقة العازلة عن طرف السلك ثم أوصلته بباب الزنزانة الحديديّ.

قمت بذلك بسرعة وبدقّة متحاشياً الوقوع في أيّ خطأ لأنّي كنت أدرك تماماً أن لديّ فرصةً واحدة فقط للهرب بجسدي الواهن من براثن هذا الجحيم ولا مجال لديّ للمخاطرة ولذلك يجب أن أضع في حسابي أسوأ الاحتمالات وألّا أترك شيئاً للصدفة أو حسن الطالع فهامش الخطأ هنا معدوم فإن اكتشف حارس الزنزانة أمري فأنا أنتظر حتماً إحدى نهايتين إمّا زنزانة أخرى في مكانٍ آخر أكثر قسوة وتحصيناً وإمّا الموت المحقق بيد من يحتجزني هنا.

عدت للضرب على الجدار بكلّ ما أوتيت من قوّة ملامح الأفق البرتقاليّ تتضح أمامي رويداً رويداً عيناي تسافران بين الشمس التي تحاول جاهدةً الشروق من خلف أكداس رماديّة من الغيم وبين باب الزنزانة والسلك الموصول به.

المطر سيهطل لا أدري لمَ يخامرني هذا الشعور!!

سمعت صوت خطواتٍ في الخارج تسمّرت عيناي على الباب توقّفت عن الضرب إنّه إيقاع خطوات الحارس أرهفت السمع توقّفت الخطوات أمام الباب تشنّجت أصابعي تعالت نبضات قلبي كاد الارتباك والخوف أن يعصفا بي ويهويا بي بين مُقدم ومُحجم تعالى صوت ضربٍ متواصل على البابّ الحديدي صوت مزاليج الكوّة الحديدية تتحرك

بصريرها المعتاد الكوّة تُفتح صوت الحارس الخشن يدوي بالنداء الثابت الذي لا يتغيّر:

- الوعاء الفارغ الوعاء الفارغ!...

بخطواتٍ واسعة عبرت مساحة الزنزانة نحو الباب التقطت قطعةً من الجبس وأقفلت الدائرة الكهربائيّة تطاير الشرر في الزنزانة سمعت صوت الحارس يتأوّه ثم تعالى صراخه وخواره لحظاتٌ قليلة مرّت قبل أن أسمع صوت ارتطام جسده بالأرض ثمّ هوى ستار من الصمت الثقيل لم يخدشه سوى فرقعاتٌ متقطعة تنطلق من المفتاح الكهربائيّ.

مددت يدي المرتعشة بقطعة الجبس وقطعت التيار الكهربائي ثم نزعت السلك الموصول بالباب امتلأ المكان بدخانٍ خانق مشبع برائحة البلاستيك المحروق تقدّمت بحذر وأنا أصيخ السمع دنوت من الكوّة المفتوحة ولأوّل مرّة شاهدت الوجه المغضن للحارس العجوز.

كان ممدداً على الأرض جاحظ العينين يحدّق بجمودٍ نحو الكوّة المفتوحة تفور من فمه رغوة بيضاء بدا لي كبحّار خمسينيّ مفتول العضلات نعم بدا لي كبحّار خمسينيّ تمرّس على ركوب البحر وشدّ الأشرعة أدمنتْ شموس البحار تمشيط خارطة جسده لعقودٍ طويلة فتركتْ بشرته سمراء مجعدة.

بحذرٍ مددت يدي وجذبت وعاءي الماء والطعام تناولت طعامي بسرعة بجوار الباب وعيناي تسافران بذعرٍ بين وعاء الطعام وبين وجه الحارس الجاحظ العينين لا أعرف إن كان هذا الحارس قد فارق الحياة أو أغمي عليه فقط وعلى الرغم من خطورة الفرق بين الوضعين إلا أنني

تجاهلت ذلك تماماً لأني لم أعد أملك مزيداً من الوقت وليس لديّ خيارٌ آخر غير الفرار وليكن ما يكون!

التقطتُ وعاء الماء وشربت منه قدر استطاعتي تاركاً بعضاً منه يسيل على رقبتي وصدري ألقيت بالوعاء جانباً كيفما اتفق ثم اتجهت متعثراً ببعض قطع الجبس ودنوت من الفتحة وخلال لحظاتٍ قليلة وجدت نفسي خارج الزنزانة صدمني الهواء البارد شهقت شهقة عميقة ملأت بها صدري بالهواء النقيّ ثم أفرغته بزفيرٍ طويل طردت فيه كلّ ما علق بصدري من رطوبة وعطن الزنزانة.

أفقٌ لا نهائيٌّ الامتداد ينسدل أمامي في الأسفل وادٍ فسيحٌ مترامي الأطراف خالٍ من أيّ عمرانٍ أو حياة هزّتني رهبةٌ قويّةٌ هبّت ريحٌ قويّة. دقّات قلبي ارتفعت بوتيرةٍ عالية تقدّمت بحذرٍ لأسترق النظر نحو الجهة الأخرى من الزنزانة استغربت اندهشت انذهلت انصدمت اعتراني الخوف لا أدري أي تعبير يليق لأصف ما أنا فيه!

لم يكن سجناً نعم لم يكن سجناً بل كانت غرفةٌ قديمة ووحيدة بنيت منذ أمدٍ بعيد فوق سطح هضبة مقفرةٍ وخالية من العمران.

وهناك شاهدت أمام بابها جسد الحارس مسجّى على وجهه لا شيء آخر نعم لا شيء آخر كان المكان مقفراً بحقّ دوى صوت الرعد أحسست برذاذ المطر يلامس جسدي لم أكن أملك وجهةً محددة التفاصيل ذاتها تحاصرني من الجهات الأربع شهقت شهقة أخرى عميقة ملأت بها صدري بالهواء وبكلّ ما أوتيت من قوّةٍ أسرعت بالنزول من المنحدر الترابيّ متّجهاً نحو قعر الوادي قدماي تغوصان في التراب والحصى

والشوك عدد خطواتي المتعثّرة يـزداد صـوت لهـاثي يتعـالى لـيملأ فـراغ جسدي وفراغ الوادي وفراغ الكون...

لم يمرّ وقتٌ طويل حتّى كان الوادي الفسيح...

قد ابتلعت مسافاته كلّ...

ملامح...

جسدي...

**تمّت.**

كلّ الأحداث الواردة في الرواية هي من نسج الخيال ولا تمتّ إلى الواقع بأيّ صلة!

المؤلف

AMEL_BADER@YAHOO.COM

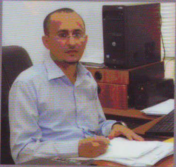

## بدر أحمد

# بين بابين

"...أقبع بين هذه الجدران، أسيراً حائراً، يبصق الوقت في وجهي حكايا وذكريات متفرقة من حياةٍ عشتها ولا أتذكّرها إطلاقاً، أفني جُلَّ وقتي غير الثمين محاولاً جمع تلك الحكايا والذكريات، أعيد فرزها ولصقها وربطها بعضها ببعض؛ أريد أن أتخلّص من هذه الحيرة الخانقة، أريد بكلّ كياني أن أحصل على القصة كاملةً، أن أعرف لماذا أنا هنا، وكيف دخلت إلى هذه الزنزانة، وماذا اقترفت لأستحقَ هذا العقاب؛ لكنّي أبدو كمن يحاول جمع أجزاء صورةٍ ممزقة فقدت الكثير من أجزائها، أو كمن يحاول حلَّ أحجيةٍ عقيمة حاول الكثيرون حلّها دون جدوى، يفنى الإنسان وتبقى الأحجية عصيّةً على الحلّ، عصيّةً على الفهم."

ISBN 978-9933-580-85-8

9 789933 580858

نينوى للدراسات والنشر والتوزيع